

المخطوطة السرية لجلابي ود عربي
الجزء الأول

ثلاثية لا وطن في الحنين
”ذاكرة الحب والمنفى في زمن الجنكويز“

المخطوطة السرية لجلابي ود عربي

أحمد ضحية
ثلاثية لا وطن في الحنين - ج1

ISBN 9789776597196

© Willows House 2021

الطبعة الأولى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائل نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر



جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

أحمد ضحية

المخطوطة السرية لجلابي ود عربي

ثلاثية لا وطن في الحنين

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس



يحاول الروائي السوداني أحمد ضحية في ثلاثيته: (لا وطن في الحنين) تصوير الواقع والتاريخ السوداني من خلال شخصيات معاصرة تعاني من الصراعات الإثنية والدينية، فيتغلغل في تاريخ المكان وماضيه الأسطوري بحثاً في الكيفيات التي تم بها إنشاء الدولة والممالك، بحكام يتأمرون على بعضهم ويشعلون الحروب بصورة تعكس ما يجري الآن في الواقع المعاصر.

دكتور صبري حافظ

مجلة الكلمة، العدد ١١٣ سبتمبر ٢٠١٦

إهداء

إلى أهل البلاد الأسيرة.

معجم الرواية

جنكويزي: كلمة مركبة من (جنجويد)، وكويز (جنكويز) والكويز تصغير (كوز)، والكوز هو الإسلاموي (اشتهر بهذه التسمية أعضاء حزب الترابي).

جاء في قواميس اللغة العربية أن الكيزان مفرد ما كوز وهو إناءٌ بعُرْوَةٌ من فُخَّارٍ أو غيره له أذن يشرب فيه أو يُصَبُّ منه، ومن هنا جاءت مقولة مؤسس جماعة الإخوان حسن البنا "الدين بحر ونحن كيزان نغرف منه".

وخلال سبعينيات القرن الماضي خاطب حسن الترابي أنصاره في إحدى الندوات بمقولة البنا، فراجت بين الناس، وأصبح الإخواني كوزا، وجمعهم كيزانا.

أما **الجنجويد** "جنجاويد" فهو مصطلح سوداني مكون من مقطعين هما: (جن) بمعنى (جَنِّي) ويقصد بها أن هذا الجَنِّي (الرجل) يحمل مدفعا رشاشا من نوع (جيم ثري) المنتشر في دارفور بكثرة.

و(جويد) تعني جواد، جمعها جواد.. ومعنى الكلمة كاملة (جنجويد): الرجل الذي يركب جوادا ويحمل مدفع رشاش جيم ثلاثة.

وتطلق كلمة جنجويد على الرجال الذين يقاتلون من فوق الخيل بهذه البندقية الآلية التي أشرنا إليها.. والكلمة تأتي من (جنجد) حسب روايات الجنجويد أنفسهم. وتعني (النهب المسلح) الذي يحترفونه في إقليم دارفور، إذ يقول الواحد منهم (مُشي نجنجد) أي نهب ومنها أتت تسميتهم **بالجنجويد**.

وقد مزجنا الكلمتين جنجويد وكويز، لتصبح جنكويز، لأغراض الرواية.

الرندوك: هو لغة الهامش السوداني الثائر ضد السلطة البائدة.. والرندوك نوع من اللغة الخاصة، خرجت من رحم حياة المشردين والمهمشين، وقد فرضت نفسها كأداة تواصل ضد النظام البائد، كلغة بديلة للغة السياسيين المملة، تعبيرا عن رفض هؤلاء المهمشين، للنظام قلبا وقالبا.. بدء بلغة خطابه ومحمولاتها، وانتهاء بممارساته.

وقد تنازل السياسيون عن أبراجهم العاجية، وقاموا بتوظيف هذه اللغة عبر تجمع المهنيين الذي قاد الثورة السودانية، الذي أخذ يستخدم الراندوم في بياناته وتوجيهاته وتحديد مسارات المواقب والاعتصامات والمسيرات: "التحية للفرد، ناس الرصة واسياد المنصة، السانات، الراسات، الناس الوقفت قنا، إلخ..".

وهكذا بهذه اللغة البسيطة الخالية من أي تنظير، استطاع تجمع المهنيين السودانيين، إقناع الشرائح المهمشة التي هي سواد الشعب الاعظم! والتي مثلت العمود الفقري للثورة، فشعروا لأول مرة بأنهم (ذات) وليسو (موضوع) لخطابات الساسة.. بالتالي أن هذه الثورة ثورتهم، فهي تعبر عن أحلامهم بلغتهم هم وليس بلغة القوى السياسية المعروفة.

ولولا لغة الراندوك أكاد أجزم لما نجحت الثورة، فقد تمثلت في هذه اللغة أحلام الفقراء والمهمشين والمشردين بل حتى الصيغ والضائعين، السجناء والمنفيين، إنصاف اللصوص والمجرمين.. وجدت كل الشرائح المقموعة التي تعيش في الظل نفسها في هذه اللغة الخاصة، التي لا يفهمها سواهم، ونجح السياسيون في تعلمها على مضض وتوظيفها لمخاطبة، كل الشعب.

جلاي: تعني في اللغة العربية، جَلَبًا، وجَلْبًا: أحدث جَلَبَةً. و- الجرحُ: عَظْمَةُ الجُلْبَةِ. و- الدُمُّ: ييس. و- عليه: جنى. و- لأهله: كسب. و- الشيءَ: ساقه من موضع إلى آخر. وهو في السياق الثقافي السوداني التاجر الذي يجلب الرقيق.

جداد: يميل السودانيون لاقبال الحروف فيسمون الدجاج جداد.

سولونق أو صولونج: بلغة الفور تعني الأحمر أو العرَبِي.

سورنق: تعني بلغة الفور سيد الأرض.

إياباسي: في نظام الألقاب في سلطنة الفور تعني أخت السلطان أو الأم الملكية

دالي: في اللغة العربية تأتي من دالاه: أي رَفَقَ به وداراه، أو صانعه، والسلطان دالي المعني في الرواية هو ابن أحمد المعقور الذي توحدت دارفور تحت حكمه، وقد كان دالي إنه مشرعا ومدونا عظيما، تنسب إليه الهيكلية الادارية والتشريعات المتوارثة في سلطنة دارفور.

المريسة: في اللغة العربية الجمع: مَرَأِسُ وتَنَاولَ مَرِيْسَةً: أي تناول عَجِيْنَةَ البَطَاطَا المَسْلُوقَةَ فِي المَاءِ وَمَرَسَ: (فعل) أي مَرَسَ مَرَسًا.

وَمَرَسَ الدَّوَاءَ فِي المَاءِ: أي أَنْفَعَهُ، بمعنى حَلَّلَ أَجْزَاءَهُ إِلَى أَنْ تَدُوبَ. والمريسة في السودان تعادل البوظة في مصر، فهي مشروب كحولي يصنع من الذرة.

الفداديات: في اللغة العربية: ف د د: والفَدِيدُ هو الصوت وقد فَدَّ الرجل يفد بالكسر فِدِيدًا. ورجل فَدَادٌ بالفتح والتشديد أي شديد الصوت وفي الحديث { إن الجفاء والقسوة في الفَدَّادِينَ } وهم الذين تعلوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم. وفي الاستخدام السوداني فداديات جمع فدادية، أي المرأة التي تدير بيتا للخمر البلدي.

الكانجي مورو: نوع من الخمر البلدي.

العسلية: نوع من الخمر البلدي يصنع من السمسم غالبا.

الحلّة: الحي

ساورا: واحد من شلالات جبل مرة، تم توظيفه هنا كمملكة
بائدة لاغراض الرواية.

الميرم: بلغة الفور تعني الأميرة

آري: السلطان في لغة الفور

البنقو: نوع من الحشيش

الخلوى (الخلوة): المدرسة التقليدية لتحفيظ القرآن، وتستخدم
أيضا بمعنى مكان إقامة الضيوف.

القطاطي: أكواخ مبنية على نحو خذروفي الشكل إلى حد كبير، قد
تشيد قاعدتها من الطين، وفي هذه الحالة تسمى دُرْدُر، وقد تشيد
من العيدان والقش فقط فتسمى قطية. لكنها في الحالتين تتخذ
الشكل المعماري نفسه

الصريف: سور من القش والشوك.

الدخن: نوع من الذرة الرفيعة.

دمور: نوع من القماش القطني

النبق: ثمرة شجرة السدر

القنقليس: ثمرة شجرة التبدي

الدوم: من النخليات، ثمرة الدوم بحجم ثمرة المانجو تقريبا،
وهي ثمرة صلبة وقوية.

الألوب: ثمرة شجرة الهجليج.

المُرِين: مزيج من الشطة والعصارة الصفراوية التي تفرزها الممرارة وتوابل معينة، يتم أكلها مع شواء المنايص، وهي تساعد على هضم الدسم.

المنايص: لحم الضان أو الغنم الذي يتبل في دارفور بطريقة معينة ويشوى.

المشك: الذرة المخمرة التي تبقى بعد تصفية خمر المريسة (البوظة) منها.

المفراكة: آلة خشبية على شكل حرف تي الانجليزي، تستخدم في طهي الاطعمة اللزجة كالملوخية والبامية. ومنها جاءت كلمة بامية مفروكة وخذرة (ملوخية) مفروكة وهلمجرا.

البُرمة: إناء فخاري يشبه القُلة. يستخدم لحفظ عجين الذرة التي تصنع منها الكسرة (الخبز).

البنقو: نوع من الحشيش.

الطب: السحر (العمل). يمارسه المشعوذين للاضرار بالناس.

المعراقي: هو الشخص الذي يشتغل في السحر، وصاحب معرفة بالعروق أي نباتات معينة ترتبط بأسرار السحر.

حبال السلب: حبال غليظة تجدل من السعف، أو القماش.

(دار: صباح، الريح): يسمي السودانيون القدامى في غرب السودان الشرق بدار صباح إذ تشرق الشمس وتصبح في الشرق، أولا.

ويسمون الجنوب بالصعيد والشمال بالسافل، إذ ينحدر النهر من أعلا (الجنوب) إلى أسفل (الشمال). كما يسمون الغرب بدار الريح لظنهم أنه موطن الرياح الغربية.

الشراقن جمع شرقانية: قطعة (حوالي مترين في متر ونصف) تنسج من قش النال، تسور بها البيوت في الأرياف، أو تعرش بها سقوف بيوت الطين.

قيف البحر: يطلق السودانيون على النهر بحر، والقيف هو الشاطئ.

الأقشي: شرائح لحم أو إمعاء البهيمة تتبل بطريقة خاصة، تخصص في ذلك السودانيون من أصول نيجيرية. أو غرب أفريقية.

القدوقدو: مزيج الدخن واللبن الرايب والسكر.

الفصل الأول

I

وإذن، يا سلمى.. أحلامي وحدها، هي التي سمحت بأن أراك
تتقلبين في احضائي. على حافة حفرة من نار، يتوهج جسمك بالحياة،
و تتوقد فيه ألف جُذوة وجُذوة!

أحلامي، جعلتك تنامين بين ذُراعي، وكإله صغير مغرور، تسكنه
الغبطة إثر كل مرة، يفرغ فيها من خلق حبيبة، تعطي أحلامه نكهة
الماضي القديم للبلاد الكبيرة.. نكهة وقائع ما جرى في مملكة ساورا..
نكهتنا الأبدية التي ليس لها مثل!

أحلامي في هذه اللحظة تشتعل، وقد اقتربت العربة النقل الكبيرة
مني بسرعة خاطفة، تصرخ بوجهي، وتربكني، فتختلط المشاهد
والوقائع والصور والذكريات!

تثلجت أطرافي وتسمرت على الأرض.. وكاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان!
وفي اللحظة ذاتها التي أصبحت فيها، تحت رحمة عجلات العربة،
صحوت من نومي مفزوعاً يتصبب جسمي عرقاً! و كل الخواطر التي
سكنتني عن "جلاي ود عربي" وناسها، تدور دفعة واحدة برأسي،
متداخلة مع وقائع حياتي وتجاربها، كشريط سينمائي، منذ النشأة
الأولى في المدينة الريفية، إلى أن انتهى بي المطاف مهاجراً.. هاهنا، في
المنافي البعيدة!

كأنني أتجول الآن في شتاءات جلاي و صيوفها.. أزقتها.. دروبها.. ناسها
وحياتهم المثيرة، التي لا تخلو من شقاء!

في الشتاء تصاب جلاي ود عربي بهاء السكت، إذ يخيم الصمت
الزائف على كل شيء، فلا تعد تسمع سوى زفيف ريح الشتاء الباردة،

وهي تحتك بقش البيوت. أو تتسلل شقوق بيوت الطين.

في الشتاء بقدر ما يعم الصمت الأزقة، والدروب العطنة و البيوت الواطئة، الفائحة بروائح سبخة، إلا أن دواخل الناس في جلاي، تلتهب و تصطرع فيها الحرق، بصورة مميزة عن أشهر الصيف القائطة.

عندما يحل الشتاء على جلاي، تتدهور أسعار “المريسة” وتصبح “الفداديات” صاحبات الانديات؛ على شفا الإفلاس. لولا رواج “العرقى” الذي بالكاد يحفظ تجارة الخمور البلدية من الانقراض، و يسمح لها بالاستمرار!

ولذلك منذ وقت مبكر قبل حلول الشتاء، تبدأ الفداديات في حفظ أواني وعدة صناعة المريسة غير المرغوبة في هذا الفصل، ويخرجن أواني وعدة صناعة العرقى، التي كنّ قد خبأنها منذ نهاية الشتاء الماضي، هذا إذا كانت الفدادية متخصصة في نوع واحد من الخمر حسب الفصول!

ولكن هناك نوع آخر من الفداديات إذ إلى جانب إهتمامهن بصناعة المريسة، يصنعن العرقى، في الصيف!

وهؤلاء كنّ من ذوات الثقافة الاقتصادية الرفيعة، التي تعتمد “التنويج الإنتاجى” فتمضي بعضهن إلى إضافة صنف آخر مثل “الكانجى مورو” أو “العسلىة” أو غيرها من الخمور البلدية اللطيفة!

لكن الفداديات بصورة عامة تزدهر صناعتهن الأساسية (المريسة) صيفاً، وإذا كنّ لسنّ من رواد التنويج في الأصناف، يتجهن شتاء إلى تجارة الجنس، التي تجد في هذا الوقت من العام إزدهاراً، يفوق ازدهارها في الفصول الأخرى، وهكذا يشهد الطريق الى جلاي في الشتاء، ابتداء من الظهيرة حركة دؤوبة، لطلاب وطالبات التسلية والمتعة، من مثليي ومثليات المدينة الريفية والمدن المجاورة!

فتيات أشكال وألوان، من كل الأعمار و التوصيفات: عزباوات، متزوجات، هاويات، محترفات، مدفوعات جميعن بالحاجة للمال، وربما المتعة والدفء فحسب!

لم يكن السلوك المثلي بعامة، ضمن الثقافة الجنسية لجلاي، ففي بدايات نشأة هذه (الجلة) كان يتم النظر لمثليي الجنس، ككائنات غريبة! وافدة من عالم آخر غير عالم (جلاي)، الذي لم يكن بعد، جزء من حركة انتقال الثقافة و المعلومات.

ولكن منذ أن حلَّ (حسان جداد وأدروب وست البنات العثمانة) بجلاي، حتى أصبحت كل المفردات البذيئة، مألوفة ومتداولة وشائعة ومعترف بها، على نحو غير رسمي، في القاموس الشعبي لجلاي ودعري.

والذي حوى الى جانب ذلك غرائب مفردات اللغة العربية، ولغات البلاد الكبيرة الأخرى، في هذا الحقل الهام من حقول المعرفة الإنسانية، التي تهتم بأكثر الجوانب سرية، في حياة الأفراد والجماعات!

أشار (صديقي حسن) إلى أن التقارير والوثائق، التي كُتبت المخطوطة السرية على هداها، زعمت أن (مملكة ساورا) التي كانت بهذا الموقع حيث جلاي الآن، أكدت وجود ممارسات مثلية، حسبما فهم الأثاريون، بعد تفكيكهم اللغة الإشارية والرمزية، التي وُجدت على جدران ما أسموه بـ (حانة أثنى الكبيرة).

لكن إشارات ورسوم أخرى في المدينة الأثرية المكتشفة، تعود إلى عهد مملكة ساورا الإسلامية، أي مرحلة متأخرة من تاريخ ساورا، نفت ذلك على إطلاقه، إذ حصرت النشاط المثلي بين النساء الملكيات!

في هذا الفصل من السنة.. الشتاء، إذن.. تشهد جلاي توافد مثليي الجنس، من كافة الأعمار والأشكال والألوان، يجيئون بشبابهم الزاهية،

التي لا تعكس روح هذا الفصل الكئيب!

كما يشهد هذا الفصل توافد الموظفين والعمال بصورة أكثر انتظاما، رغبة في الجنس والعرقى!

ثمة تجارة لم تكن ضمن النشاط الاستثمارى، في الثقافة الاقتصادية لجلايى. هي تجارة "البنقو" والحشيش. إذ بدت هذه التجارة ترسخ أقدامها، بعد دخول بعض المسؤولين النافذين، في (الدولة الجنكويزية)، كموردين سريين، بعد أن شاعت الرشاوى في مطارات وموانئ البلاد الكبيرة، وأصبح التهريب محميا بأجهزة الدولة!

وكذلك إثر المجاهدات والنضالات الفذة، لمزيد الحلبي وكسبان الضاوي وأليكو الفلاقي!

ففي البدء وجدوا كصغار موزعين، كثيرا من العوائق والعقبات، بسبب الاعتقاد الشائع في جلايى، بحُرمة الحشيش والبنقو والسجائر الأحمر (العادي ده!) دونا عن سائر الخمر والأدخنة! ولكن بعد النشاط التنويرى المكثف، لمزيد الحلبي وكسبان الضاوي، والفلاقي أليكو أقتنع أهالي جلايى، باستثناء جداد وبعض الذين يوالونه من التجار، أنه لا توجد آية واحدة حرّمت الحشيش والبنقو، على عكس العرقى والمريسة!

مع أنهم كانوا لا يحفظون من كتاب الله كله، سوى قل هو الله أحد!

هذه "الفتوى" هدأت بال جماهير شعب جلايى قليلا!

كما أن كسبان ومزيد، أعطيا مسألة الاتجار بالبنقو والحشيش، بُعداً وطنياً ثورياً في غمرة حماستهما، ضد المخدرات "الإسرائيلية" التي باتت تجتاح جلايى الآمنة، عن طريق دار الريح، محملة على اللواري القادمة من "نيجيريا" فكان ذلك ضمن أجندة ندواتهم، التي جعلها شعارها الدائم:

”مقاطعة المخدرات الإسرائيلية، وضرب عملاء إسرائيل في جلالي:
واجب وطني“!

كانا يفردان مساحة واسعة، للحديث عن أنواع المخدرات في البلاد الكبيرة. ويتحدثان إلى الحضور، عن سلسلة نسب “البنقو الغرباوي” أو “وارد دار الريح” منذ اكتشافه الجنكويزي سمعان “بنقيتو” أثناء تجواله بغنمه في الخلاء الواسع بين سهول تبستي وأزوم وأطلس!
والبنقو والحشيش الشرقاوي، الذي يضرب بجذوره، إلى ثمانية آلاف سنة خلت، في الهضبة الأوسومية.

حيث أكدت وقتها الكنداكة النجاشية، قبل إعطائها حق الحماية واللجوء، للعرب المسلمين الهاربين من القمع، والانتهاكات واسعة النطاق، لحقوق الإنسان في (مكة) كان “يصطحح” كل صباح، على سيجارة عظيمة، على غرار أسلافه.

وتحت تأثير هذه السيجارة الصباحية بالتحديد، والتي كان يعدها له خصيه الأول، من نبات البنقو المزروع بعناية، في أخصب بقعة من الحديقة الملكية المقدسة، عند ذروة سنام الهضبة الأوسومية! كانت تترى على خاطره كل الأفكار المثالية التي اشتهر بها!

إذن تحدر نسب البنقو الشرقاوي العريق، جيلا إثر جيل، من هذا المكان المبجل منتشراً إلى الجوار، حتى وصل جلالي المنسية!

لكن كل هذه الأنواع، لا تضاهاي البنقو الجنوبي، الذي يعود تاريخه إلى ممالك الزولو والبانتيو، اللتان نشطتا في تصديره إلى السونغاي ومالي. وهذا النوع من البنقو لتمييزه، أطلق عليه أهل جلالي “مسكين أنا وقلبي انجرح” على التوالي!..

وفي لحظات تجلياتهم الكبرى، يتندرون حوله بأنه الكافر، الوثني، المشرك، المتمرد الحبيب، اللذيذ!

هذا غير التعابير الأخرى مثل: ”الفيل والطرارة والنكهة والتونسية وقطار عجيب وعجوبة، إلى آخره من التسميات الحميمة، التي دأبت أجهزة الأمن على التحقيق مع مروجيها!

وتقول الأسطورة أن البنقو الجنوبي هو نبات مقدس، كان ”الإله لانجور“ يداوي به جرحى الحروب الأهلية الطاحنة! ويشفي به الأكمه والأبرص، بعد أن يغمسه في دم غزالة بكر بنت بكر، أي أنها البكر بين أشقائها، وأن أبويها أيضا بكرين، على رأس قائمة أشقائهم من الغزلان البريئة!

وبسبب هذه الأسطورة أعتقد الأهالي (البعض على الأقل) أن هذه النبتة المباركة، تحرس البيت من الأرواح الشريرة، إذا تم تعليقها بطريقة معينة، بحيث تتدلى من سقف البيت جنبا إلى جنب مع مشلعيب!

ولكن هذا الاعتقاد يدخلهم في معضلة عظيمة، مع مكافحة المخدرات، بحيث يتمزقون بين القانون الرسمي، واعتقاداتهم الموروثة المقدسة! وهكذا تعتبر هذه الندوات، التي تصدى بها كسبان ومزيد، للحملات المضادة من جداد، محطة هامة في ابتداع فكرة المهرجانات والمواسم الثقافية بجلالي!

كما أنها شكلت منعطفا في مسيرة إغناء القاموس التعبيري الرسمي، للبلاد الكبيرة ككل. ورفده بغرائب الكلمات، التي تطورت مرور الوقت، إلى لغة قائمة بذاتها، لها قواعدها ونحوها وصرفها واشتقاقاتها و مبتدؤها وخبرها، سميت بلغة ”الرنديوك“ ونسبت إلى مجموعة اللغات الجلابية العريقة!

لم يجد جداد في نهاية الأمر جدوى، من الصراع مع كسبان ومزيد، فحاول في فرص النقاش، التي يطلبها في الندوات، أن يوسع

دائرة المقاطعة، لتشمل كل "البضائع الإسرائيلية، الصهيونية والامبريالية العالمية!"

فلم تجد محاولاته هذه، لحرف الخط الدعائي، الذي انتهجه كسبان ومزيد، قبولا لدى الأهالي، الذين كانوا على الرغم من بساطتهم، لا يصدقون ما أسموه: "كلام فارغ!"

فالأهالي لم يحدث لهم أن رأوا "خواجة" عيانا بيانا، بحكم موقع جلاي من الجغرافيا والتاريخ، ولذلك لم يكن من الممكن أن يعادوا (الإنبريالية) التي لم يتشرفوا بمعرفتها أصلا، كما أنهم لا يعرفون، أين تقع هذه (الإنبريالية) اللعينة، من جغرافيا البلاد الأسيرة، والخريطة العامة لضواحي جلاي المؤمنة!

وهكذا سقطت محاولات جداد، لحرف أفكار السواد الأعظم في جلاي، سقوطا مريعا جعله يهرب إلى الأراضي المقدسة!

أسعد هذا السقوط جهاز مكافحة المخدرات (للمفارقة). فلم يقيم بأي محاولات لتعويق خطة كسبان ومزيد (في البداية فقط) لكن بعد ذلك بوقت طويل، أصبح بيت مزيد وكسبان عرضة لحمات التفتيش، من قبل المكافحة بين آن وآخر، خاصة عند اقتراب نهاية الشهر، ومواعيد صرف "المواهي!"

ومع أنهم في كل حملة، كانوا يقبلون بيت مزيد رأسا على عقب، إلا أنهم لم ينجحوا على الإطلاق، في معرفة المخابئ السرية، أو أساليب الترويج التي يتبعها كسبان ومزيد!

لكن قبل ذلك، وكردة فعل على سقوطه، دعى جداد أهالي جلاي إلى ندوة حشد، لها الكراسي والحيوانات والمياه الغازية والبلح، والباسطة والإنارة بالوابورات الجاز "جنيرترات". وعلق على مقدمة الصيوان، قطعة كبيرة من القماش كتب عليها بالخط الكوفي:

(جلاي ود عربي تحذر أميركا للمرة الأخيرة.. بن لادن بطل قومي).

جاء أهالي جلاي. أكلوا البلح والباسطة وشربوا الحليب والمياه الغازية، وما أن بدأ جداد في ندوته يتحدث عن العراق والاحتلال، إلخ.. حتى انفض أهالي جلاي إلى بيوتهم واشغالهم، وقد اعترتهم دهشة عظيمة، فهم لم يتخلصوا بعد من قصة إسرائيل، ولم يفهموا علاقة بلدتهم المسكينة بالامبريالية، وإذا بجداد يرميهم بحكاية العراق وبن لادن، فمن المؤكد لو مكثوا في الندوة سيتعرض الرجل لقصة فلسطين وأقاربهم في البوسنة!

وتعبيراً عن غضبهم أشاعوا أن جداد جنّ! ولسان حالهم يقول:

“مال (التومة ست العرقي) ومال العراق واسرائيل، حتى تهدد جلاي ود عربي أميركا أو تقاطع الانبريالية؟!..ومن هو بن لادن هذا؟ أنه حتى لم يولد في نواحي جلاي ولا يهمننا أمره!”

أشاع حينها بعض الخبثاء، الذين أرادوا إستغلال الموقف، أن جداد عنصر إرتباط خطير في شبكة إرهابية، تتبع للظواهري!

وكان مزيد الحلبي في هذا الوقت، قد تخلى عن عمله في الملجة كحداد، وأستقر بصورة نهائية في جلاي، التي أصبح يلزمها مع انتعاش تجارته، ولا يغادرها إلا نادراً.

في واقع الأمر ليس هذا هو ما يميز جلاي عن “الحللات” و“الفرقان” الأخرى، فما يميزها حقاً هو الطابع التراجيكوميدي، الذي وسم حياة سكانها بطابعه!

ومع ذلك، الطابع الذي منحهم خصوصية تميزهم، عن سائر مخلوقات الله وكائناته العجيبة، في البلاد الأسيّرة.. هذه الخصوصية تمثلت في قدرة أهالي جلاي على الفرح، رغم ما يتعرضون له من كشات وسجون، قد تطول مددهم فيها أو تقصر.

وعلى الرغم من إيمانهم الدينية العميقة، كانوا يواثمون هذه
الإيمانات الدينية العميقة وسلوكهم، الذي لم تشهد له “الليبراليات
الراديكالية” عبر التاريخ المعاصر مثيلاً!

فأهالي جلالي إيمانهم عجيب وغريب: ففي لحظة هم ملحدون
ولا دينيون، ساخطون على الديانات والمؤمنين بها، وفي لحظة أخرى
ليس كمثلمهم أتقياء، وبين اللحظتين يتقلبون في سلوكهم اليومي بين
التحفظ والتحرر والإنحلال التام!

قابلية أهالي جلالي الذين قسمهم الرسمي هو (الطلاق) -الذي لا
يقسمون برب غيره!- على استقبال الجديد مدهشة، فعلى الرغم من
أن الكهرباء هي اختراع يسمعون عنه فقط، وبالتالي تلفزيوناتهم كلها
تعمل بطاريات العربات.

ومع أنهم ليست لديهم قنوات فضائية، و الأنترنترنت ليس ضمن
ثقافتهم، إلا أن جهاز الفيديو الوحيد في جلالي، والذي يملكه مزيد
الحلبي، جعلهم يتصلون بعالم الموضة والأزياء، وأحدث تقليعات
التسريحات في العالم، من أقصاه إلى أدناه.

إلى جانب أنهم إبتداءً من دخول جهاز الفيديو، بواسطة مزيد
الحلبي، أصبحت لديهم معرفة مثيرة بأنواع الأوضاع الجنسية، على
الطريقة الفرنسية والإيطالية والهولندية والأمريكية، فأصبح ليس من
المستغرب، أن يجد أحدهم في مكان ما بين أوشام الثعابين على فخذي
عشيقتة، حلقة من الذهب أو أسورة من الفضة!

فثقافة التتو Tattoo خرجت بقدرة قادر من أعماق أكسوم
الغابرة، لتنشر الرسوم المقدسة للأفاعي والطيور والأزهار والورود
البرية في الكتفين، أو النهدين أو الردفين. وهكذا ازدهرت صناعة
الأوشام المثيرة، كصناعة فنية مبهرة مع دخول الفيديو، الذي مثل

مرحلة تحول كاملة، وانتقال من ثقافة البلاد الأسيرة الكلاسيكية، إلى آفاق العولمة الرحبة!

فمزيد الحلبي كان رجلا خصب الخيال، لذلك لم يكن يكتفي بإحضار شرائط الأفلام فحسب، بل كان ينتقي إلى جانبها شرائط الموسيقى والرقص الأفريقي والغربي والبرامج والمسلسلات الممتعة المترجمة مثل أوبرا oprah و law & order ونيكييتا، وغيرها.

هذه المسلسلات و البرامج جعلت النساء والرجال في جلالي، يكتشفون كم هي بائسة حياتهم السابقة! خالية من متع وزينة الحياة. وهكذا ظهرت طبقة من المثقفين الذين أطلقوا على أنفسهم فيما بعد: (علمانيو جلالي ود عربي التقدميون).

عندما يحل المساء يحضر الكثيرون من أهالي جلالي، يتزاحمون أمام بيت مزيد الحلبي لشراء التذاكر من خميس، الذي كان مزيد قد أوقفه في الباب، حتى يتمكنوا من الدخول لمشاهدة الفيديو.. وعندما شاهدوا للمرة الأولى نيكول كيدمان في the others تبنى العقل الأسطوري لجلالي كاشفا عن مواهبه الدفينة، على الرغم من أنهم بكوا كثيرا لقتل بطلة الفيلم لطفليها، وانتحارها وبقاء أرواحهم الثلاثة معلقة بين العالمين، فأصبح البعض يخبئون عند منعرجات الدروب ليخيفوا المارة! وسبب لهم ذلك خوفا لم تستطع أفلام الفضائيين An aliens ومصاصي الدماء Vampires من تحقيقه.

وعلى عكس ذلك، أسعدهم روبين وويليامز في جماعة الشعراء الأموات the dead poets society على الرغم من الكآبة الرومانتيكية التي أزعجت حساسيتهم، والتي تنضح من هذا الفيلم، ورغم كل شئ، شعب جلالي هو شعب واقعي لكن حساس أكثر من اللزوم! ومن الأفلام التي ظلوا يحكونها لبعضهم البعض، وعبرت عن

تطلعاتهم غير المشروعة في القوة الغاشمة، فيلم نوم كروز المهمة المستحيلة the mission impossible وأفلام الحرب والمخابرات عموما.. والغريب في الأمر أن مجتمع المشاهدة في جلابي، انقسم إلى مجموعات. مجموعة تحاول أن تفرض على الآخرين، مشاهدة المباريات الرياضية المختلفة: ملاكمة، كرة، سباق، الخ..

وأخرى تحب أفلام روكي والحرب الأمريكية الفيتنامية ورعاة البقر وجوالة تكساس، وتلك الأفلام التي على غرار فيلم ويل سميث Face off the independence day أو جون ترافولتا ونيكولاس كيج وأخرى لا تحب شيئاً سوى الأفلام الهندية، ولا تزال مغرمة بـ “من أجل أبنائي” مع أن أبناء جلابي في العموم، كانوا أبناء عاقين، وآبائهم أنفسهم الواحد منهم يشتم ابنه بـ يا ابن الكلب! آناء الليل وأطراف النهار!

وانطلاقاً من هذه التغييرات، التي اعترت جلابي وأزعجت جداد، قرر الأخير جلب جهاز تلفزيون و فيديو كبير، ووابور لتشغيله بدلا عن بطاريات العربات.

وأخذ يشغل الأفلام المصرية القديمة (أبيض وأسود) كالوسادة الخالية لعبد الحليم ولبنى عبد العزيز، أو سعاد حسني ونادية لطفي في للرجال فقط أو شكري سرحان وتحية كاريوكا في شباب امرأة!

فقد كان جداد يعتقد أن هذه الأفلام إسلامية عاصية، أقل خطراً من أفلام الكفار!.. ولذلك كان بين كل فيلمين من هذه الأفلام، يشغل أشرطة لأحمد ديدات و عمرو خالد والقرضاوي، وإبن عثيمين وغيرهم من مُلاك الحقيقة المطلقة والأدعياء!

لكن لم تجد خطة جداد رواجاً، فسرعان ما ملّ الناس أفلامه وخطبه “الإسلامية” المزعومة!

هذه المشاهدات لأفلام الفيديو المتنوعة، جعلت لأهل جلالي ذوقاً رقيقاً في الأزياء والرقص والغزل والتحرش وأشياء أخرى!

كما انتشرت بفضل هذه الأشرطة حفلات البارقي، التي أخذ أهالي جلالي يقيمونها بسبب وبدون سبب، فعندما أنجبت كلبة السرة، التي كان أهالي جلالي يتهمونها بالعقم، أقامت السُرّة بارقي لم تشهد له جلالي مثيلاً، منذ ذلك البارقي الذي كان جداد قد أقامه، إحتفاءً بالتطورات المهنية التي حدثت في حياته، ما جعل أهالي جلالي يطلقون عليه لوقت غير قصير: الديك الراقص!

وهكذا كان أهالي جلالي، يمتلكون قابلية عجيبة على هضم كل جديد، في أي مجال من المجالات المتعددة للحياة، وممارساتها اليومية ومتعتها ورفاهياتها! ولذلك كانوا دوناً عن سكان الصّواحي الأخرى، التي تشبه جلالي في كل شيء! يهتمون بمشاهدة أفلام الجنس أكثر من أي شيء آخر، رغم أنهم لم يكونوا يعانون من أي حالة كبت.

ربما كان ذلك لحاجتهم العلمية الماسة، و لعاداتهم في هضم المعارف الوافدة، أصبحت العديد من الأشياء التي تعرفوا عليها، من أشرطة الفيديو المختلفة، جزءاً أصيلاً من ثقافتهم ومعارفهم الجديدة.

ساعد على ذلك أن جلالي تنهض في الخيال، بطبيعتها المعقدة ذات التجليات، أكثر مما تنهض في الواقع اليومي. وربما لهذا السبب بالذات، ألهمت الشعراء من أبنائها، الذين برزوا بعد ذلك على مستوى البلاد الأسيرة، أعذب الأشعار التي طبقت شهرتها الآفاق، وأصبحت مفتحة لمهرجانات الشعر العالمية.

كما أن كل الكتاب والروائيين والتشكيليين والمسرحيين والمغنين الذين انجبتهم جلالي، قد قوبلوا في مشارق الأرض ومغاربها بترحاب كبير، أزعج وزارة الثقافة!

فقد كان هؤلاء بشهرتهم الكبيرة قد جردوا الوزارة من مهمتها الأساسية: تعريف العالم بثقافة وإبداع البلاد الأسيرة، فقد أعطت هذه الشهرة العالم إنطباعاً كاذباً عن وزارة الثقافة، في ظل حكومات الجنكويز المتعاقبة!

فالصورة الإبداعية، التي عرفها العالم عن إبداع البلاد الأسيرة، جعلت الوزراء في الشرق والغرب، يتصلون برصفائهم المتعاقبين في جلاي، يدعون المبدعين عن طريقها، إلى مهرجانات ومؤتمرات دولهم، في حقول الإبداع والمعرفة المختلفة، فتخرج وزارة الثقافة ولا تعرف كيف ترد، لأن مبدعي جلاي لسوء حظها، جميعهم من المعارضين، الذين يرفضون السفر عبرها لتمثيل البلاد الأسيرة، الأمر الذي يضطر الوزارة للاستعانة ببعض الجنكويز الأذعيا، فيسافر هؤلاء ويعكسون وجهها قبيحاً وفجاً للعالم، عن البلاد الأسيرة. ما أضطر كل الدول المضيفة، التي كانت ترسل دعوات للتوقف عن ذلك، وهكذا لحق إبداع جلاي "أمات طه" في موطن أسلافه في ساورا البائدة.. وغاب تحت حجب النسيان! كل هذا "كوم" والسياسيين الذين أنجبتهم جلاي كوم آخر، فقد مثل هؤلاء جرحاً دامياً ظل "ينقح" داخل وجدان جلاي قاطبة!

فعندما يخرج الواحد من هؤلاء إلى الضوء، و يتربع على عرش السلطة، مثل عباس ود الخزين وعبد الجواد ود الباهي ومحمد أحمد ود مستورة، ينسى جلاي وأهلها و يلعن "سلسفيل" أسلافها وسلالاتها الضالين والمغضوب عليهم، كما ظلوا يزعمون في جلساتهم الخاصة، ولا يقدم لجلاي أي شيء، تعبيراً عن جماليها ووقوفها معه في الانتخابات. بل يعمل من موقعه على تضيق الخناق عليها، ولذلك كانت من الهموم الكبرى في جلاي، عملها الدؤوب، على ألا يصل أحد أبنائها إلى دست السلطة، ولو في اللجان الشعبية! فقد ملّت من الانقلابات الجنكويزية وأخلاقها!

من جلاي وحدها تستطيع استشفاف تاريخ البلاد الأسيّرة،
والتقلبات التي مرّت بها في الإثني ethnic والاجتماعي واليومي والثقافي.
على مسرح جلاي المنسوب في العراق، قدم مسرحييها الذين حصل
أغلبهم على جوائز عالمية كبيرة، في التمثيل والإخراج والتأليف، لكن لم
تسمح لهم الدولة بالسفر للحصول عليها!

من هذا المسرح خرجت روائع المسرح الوطني، التي أصبحت
تُدْرَس لتلامذة المسرح في بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وكل مراكز الآداب
والفنون العالمية، منذ الانحسار الهليني على أيام مملكة ساورا!

فأهم السمات التي حملتها مدرسة "جلاي" المسرحية، أنها
استفادت من عصر "الباروك" في تعابيرها الحسية، وأخذت عن
"البيكيتية" عبثية هذا العالم في البلاد الكبيرة، وعلى هدى "كنط"
حاولت اشتراع عقلانية جذرية في الإبداعي!

هذا المزيج الغريب، أدهش العالم، وأوقف ضربات قلب
المشاهدين، الذين كانوا يحبسون أنفاسهم منذ لحظة رفع الستار
حتى إسداله!

قدمت جلاي دراما غير معقولة البتة، استطاعت أن تعكس خلالها
مباهج "الإنسان" وآلامه، في هذا المكان المعزول عن العالم والمسمى
"جلاي ود عربي" ما جعل أحلام الأهالي تتجاوز مجرد طرد حكومات
الإستعمار المحلي الجنكوزية، إلى نوع من الحلم الصوفي، بالخلاص
والفردوس المفقود والمدن الفاضلة.

هذا المسرح الذي قدمته جلاي، استطاع أن يضخ معان وقيم
جديدة، جددت دماء العروق الجافة للمسرح العالمي، خاصة بعد
المرحلة الشكسبيرية الباروكية، التي استمرت لوقت طويل رغم أنف
التاريخ الفني!

II

كنت لا أزال مروعاً من العربة النقل الكبيرة، التي دهستني،
فصحت من نومي مفزوعاً تتداخل في ذهني عوالم جلالي وناسها،
وأنا أراقب مسيرة حياتي منذ النشأة الأولى في المدينة الريفية، إلى أن
انتهى بي المطاف ها هنا.

تلفت حولي في الغرفة المظلمة.. نهضت.. أضأت النور.. اتجهت إلى
المطبخ.. فتحت الثلاجة وأخرجت زجاجة مياه معدنية..

بللت حلقي الجاف، و أخذت أجول ببصري بين علب البيرة
“هاينكن” و“ستيلا” و“خمور الزببية والبراندي” المصرية رديئة الصنع،
تشرّب زجاجاتها إلى شفتي اليابسة!

توقفت في منتصف الصالة، التي لا تزال بقايا دخان سجائر ليلة
البارحة، عالقة في أرجائها كأنها دُخنت للتو!

يا لهذا الكابوس المرعب الغريب! أكاد أجن!! فهذه الأحلام التي
تلاحقني كلما نمت، تجعلني لا أقوى على التمييز بينها، وبين الواقع
الفعلي الذي أعيشه. ما عدت أعرف هل أنا هو أنا حقاً، أم أنا
صدى ذكرى بعيدة، في (مملكة ساورا البائدة) أو (مملكة الجوار) أو
(الحلفاء) أو (مملكة الجبل والوادي) أو (جلالي ود عربي).. هذه البلدة
التي عشت فيها عدداً من اللحظات، تبدو لي الآن لا متناهية..

هل أنا صدى لذكرى هائمة، في هذه الأماكن السحيقة أو القريبة!
أم لي وجود فعلي! هو هذا الوجود الراهن، الذي استيقظ من الحلم/
الكابوس فزعا.. أضاء النور وفتح الثلاجة وجال ببصره في أنحاء الشقة

..و

بالأمس حلمت بأنني في ساورا البائدة! أتنقل كروح تائهة في
مشاعر وأحاسيس شعب الوادي لمئات السنوات..

قطعت معهم مسيرتهم الطويلة في التاريخ، حتى لحظة المباراة
بين ملكتهم الأخت القوية (أياباسي كيرا) و الفتى الشجاع من عامة
الشعب (سولونق) الذي قاد ثورة استرداد (السلطان دالي) لملك
أجداده!! وفقا لمزاعم المخطوطة السرية!

وكان قلبي يخفق بشدة كلما تلقى سولونق بسيفه، ضربة من
ضربات سيف الكيرا.

قبلها كنت قد حلمت أنني في جلابي ود عربي.. تلك البلدة، التي
رأيتها آخر مرة، قبل قرابة ربع القرن.. أجوب حوايرها وزقاقاتها،
متسللاً بوح حكاياها وأخبارها.

وعندما صحت وجدت الحلم قد رمى بي مرةً أخرى، إلى خاطر
شعب الوادي!.. وهكذا بين خاطر شعب الوادي و جلابي ود عربي،
ظللت أراوح محاولاً الإفلات، إلى اللحظة الرَّهنة، التي أشك فيها هي
الأخرى، أن تكون تمثيلاً لوجودي الحقيقي، في الزمان والمكان!

حدقت من نافذة الصالة، أحاول أن أخترق حجب ضباب الفجر،
الذي يُحيط بالأهرامات التي تبدو بعيدة من هنا، ثم رددت بصري
أحاول الوصول، إلى نهاية شارع الهرم، وأنا أقاوم في استماتة النُّعاس،
الذي لا يزال متواطئاً على دماغي، مع خمر ليلة البارحة، التي كانت
لا تزال تسري، في رأسي وعروقي!

نمت واقفاً أمام النافذة! ووجدت نفسي مرةً أخرى أعود إلى
مملكة ساورا، التي كانت في هذا المكان نفسه، الذي نهضت فيه
بلدة جلابي ود عربي، بعد آلاف السنوات.

رأيتني جزء من ذاكرة سورنق ابن الراعي العجوز (دورة) كاهن

ساورا المبجل.. ولم أعد أشعر بذات الرعب، الذي كنت أحسه في البدايات، عندما أخذت هذه الأحلام تنطلق بي، لأجوب التاريخ والأماكن.. مختزلة الزّمن والجغرافيا!.. وعندما أفقت من إغمائي، وجدت نفسي في حاضرة البلاد الأسيّرة، مطارداً من قبل أجهزة أمن أبولكيلك الجنكويزي.

لا أذكر أنها اعتقلتني، لكن لا أستطيع أن أنسى أنه أغمي علي أثناء التعذيب!.. و عندما أفقت من إغمائي، وجدت نفسي في المدينة الريفية، وآثار التعذيب على جسدي ووجهي!؟

سألتي سارة شقيقة صديقي القديم حسن:

“يبدو أنك تعرضت للضرب! مع من تعاركت؟ و أين اختفيت كل هذه الأيام؟”

“أظن أنني كنت معتقلاً”

قلت باقتضاب.. ارتفع حاجبيها في دهشة! وساد صمت عميق بيننا، قبل أن يخرج صوتها مباغتاً.. في حضورها المهيمن على فضاء المكان.. وهكذا دون سابق إنذار؛ أخذت تحكي لي عن جلالي ود عربي وناسها!

III

خرجت سارة قبل منتصف الليل. أوصلتها قريبا من منزلها. ثم عدت أدراسي.. كنت منهكا. وما أن أسلمت نفسي للنوم، حتى وجدتني في القاهرة! بصحبة الميرم كلتوم!

أكاد أجن!.. لا أعرف هل هذه أحلام، أم هي واقع حقيقي أعيشه؟ عبر ظاهرة خارقة تختزل جسمي وتختزل الزمان والمكان، وتستعيد في كل تلك العوالم المفقودة في التاريخ؟!.. المفقودة؟!.. لا أدري أيها هو المفقود، و إلى أي عالم من هذه العوالم أنتمي حقا!

هل أنتمي إلى المدينة الريفية، وجليبي في واقع الأمر، حيث تلك هي اللحظة الحاضرة لحياتي الفعلية، وما عدا ذلك هو محض أحلام أو وهام، أثارتها وغذتها الوقائع والأحداث، التي قرأتها في (المخطوطة السرية) أم أن العكس صحيح:

بمعنى أنني جزء من المخطوطة السرية، كواحد من موضوعاتها التي تناولتها؟!!

ربما يكون ذلك استنتاجا متسرعاً، إذ يبدو لي (ليس بصورة قطعية) أن لحظتي الحاضرة الفعلية، التي أعيشها هي في ساورا، وأنني باعتباري سيد الأرض سورنق أو دالي بن آري، أحلم بأن في هذه الرقعة من الأرض، ستنشأ ذات يوم بلدة أسمها: جلابي ود عربي.

وأن شاباً اسمه علي (أي أنا) يسكن المدينة الريفية، سيتردد عليها كثيرا، ليحل محل والده أثناء غيابه في متجره الصغير، الذي أنشأه بهذه البلدة، وربما يتعرض هذا الأنا، للاعتقال في حاضرة البلاد الكبيرة، فيهرب إلى مصر ويسكن في الجيزة، في شارع الهرم تحديدا.. ويلتقي

هناك الميرم كلتوم، التي اختفت من المدينة الريفية، عندما كان هو
صبياً صغيراً، دون سن المراهقة!

لا أدري الآن أي شيء هو الحقيقي، وأي شيء هو الوهم.. أو الظلال
لهذا الحقيقي، أو تمثّلات هذا (الحقيقي) البعيدة.. كل ما أدركه الآن
هو أنني يجب ألا أنام، حتى لا أحلم أو أتوهم أنني أحلم، وأجد
نفسي فعلاً في مكان آخر عندما أصحو (مثل كل مرة!).

IV

كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي. بعد أن دهستني عربة النقل الكبيرة، وساوتني مع أسفلت الشارع. ففي هذه اللحظة القصيرة، التي تفصل بين الحياة والموت، مرّ على خاطري كل ذلك العالم المنسي لـ (جلاي ود عربي) تلك الحلة أو الحي أو المدينة الريفية العجيبة، التي أنهكت

المؤرخين، بما طرحته عوالمها من أسئلة عجيبة، حول جذور سلطتها، وممارسات ابولكيلك الجنكويزي ومن سبقوه:

كيف تَمظهرت أسئلة السلطة في البلاد الكبيرة، هكذا.. مغايرة لكل أشكال ممارسة السلطة، في العالم الواسع؟!

لا بد أن مظهرها البائس، يتعلق بمصدر إنتاجها، وهكذا.. كنموذج بدأ المؤرخون وعلماء الآثار بدراسة جلاي ود عربي، في بناها الاجتماعية، وحكايا ناسها، التي تكشف عن شيء من ذاكرة أسلافهم المجهولين.. وبالنتيجة تم اكتشاف: أن كل البلاد الكبيرة بعد أن وقعت في كمين الأسر، نهضت على أساس نموذج جلاي ود عربي، أو جلاي ود دينكاوي أو جلاي ود نوباوي.. إلى آخره!

لكن ظلت هذه الاستنتاجات التي توصل إليها المؤرخون وعلماء الآثار، مجرد مخطوطة لم يكتب لها النشر ككتاب ورقي محقق ومبوب، لوقت طويل، وعندما تمت طباعتها حدث ما حدث!

حول جلاي ود عربي أُلُفت كثير من الدراسات والمقالات والأبحاث، التي حاولت الإجابة عن تاريخ جلاي ود عربي. ولكن كل ما كُتب عن جلاي ود عربي، لم يكن محققاً، كما أن فرضياته انطلقت من أسئلة غير صحيحة.

هذه المقدمات الخاطئة، ترتبت عليها نتائج خاطئة، ولذلك من دون كل ما كتب، وجدت المخطوطة السرية، التي لم يقرأها أحد! حظاً وافراً من الشهرة، وذلك بسبب الإجابات الصحيحة التي توصلت إليها، بطرح الأسئلة الصحيحة! التي تبحث في جوهر المسألة حول تاريخ جلاي ود عربي، الذي نشأت فيه فكرة السلطة، وتشكلت تلقي بظلالها في أنحاء البلاد الكبيرة!

النظام الإداري الأهلي في جلاي ود عربي، كان من الأمور اللافتة للنظر، إذ كان هيكلاً عجيماً. فيه تراتبية مدهشة! لم يجد له أهالي البلاد الكبيرة تفسيراً، فشكّل حافزاً لكل الأسئلة، التي لم يتمكنوا من الإجابة عنها، إلا بعد الكشف الأثري الألماني الشهير، على الرغم من طرد السلطات مبكراً، للبعثة الأثرية الألمانية، وإعلان (جلاي ود عربي) منطقة عسكرية: تخضع لسلطة وسلطان الجنكويز النظاميين.. ممنوع الاقتراب والتصوير!

بالطبع لم يعرف أحد بعد ذلك ماذا يدور داخل هذه المنطقة المغلقة، إلا أن بعض الشائعات زعمت: أن بن لادن اشترى جلاي ود عربي، لأغراض علمية: (انتاج اسلحة بيولوجية ونووية!) بينما يصّر إعلام النظام الجنكويزي، أنها مدينة صناعية للسيارات!

وكانت قصة إعلان جلاي ود عربي كمنطقة أثرية في البدء، قد بدأت بعد الحريق الكبير، الذي شبّ في جلاي و أحرقها، من بدايتها إلى نهايتها، وأصبح الأهالي يقيمون في العراء، فأكتشف أحدهم عن طريق الصدفة، بعض التماثيل والأواني أثناء حفره، لنصب أعمدة خشبية، لكوخ صغير، ليقيم فيه بعد حريق منزله، فاستوقفه ذلك ومضى يحفر فأكتشف أنه في مدخل معبد!

وهنا في هذه اللحظة بالذات، تدخل موظفي تنظيم القرى ومعالجة السكن الاضطراري، فأشروعوا الباب واسعاً، لهيئة الآثار التي

اكتشفت: أن المعبد الذي اكتشفه الرجل، هو في أطراف مدينة بائدة! وعندما توغلوا في الحفريات، بمساعدة البعثة الألمانية، فوجئوا بعالم أثري مبهر:

كانت المدينة الأسطورية هي (ساورا) ذاتها “بشحمها ولحمها” تنهض أمام الجميع من قلب التاريخ المنسي، ومن أعماق حكايا الذاكرة الشعبية لجلاي ود عربي!

على جدران هذه المدينة البائدة، اكتشف علماء الآثار، وشوم القبائل التي سكنت ساورا، وتاريخ الممالك القديمة المتنازعة، كما وجدوا نوعا غريبا من الورق، فشلت كل أجهزتهم المتقدمة في التعرف على نوعه أو مكوناته، مكتوب عليه بما بدى واضحا أنها حروف خاصة جدا، ليست مطروحة للعامة من شعب (ساورا) العريق، إذ يتم التعامل بها فقط في دوائر الكهنة! حتى لا تتسرب أسرار علومهم المبجلة! إلى “ناس قريعتي راحت!”.

لكن كان واضحا أن حروف اللغة: مزيج من الحروف اللاتينية القديمة، و حروف لغة الفور والنوبية القديمة. وعلى هذا الأساس جرت محاولات فك أسرار هذه اللغة.

إذن أصابهم بالذهول، هول ما وجدوه: تاريخ للوقائع والأحداث، التي شكلت مملكة ساورا، وأدت إلى إنهيارها، الأمر الذي طرح تساؤلات عدة، عن علاقة ذلك بجلاي والمدينة الريفية؟ وهل قادت الصدفة النازحين وعابري السبيل لإنشاء جلاي، أم هو الحنين الغامض لمملكة أسلافهم؟! و(دودو) أو (بولدين) (الجد الأكبر) لمملكة الجوار أو الحلفاء، هل هو أبو لكيلك الجنكويزي أو حسان جداد؟

و(لاروي) شقيقة دودو: أليس من الممكن أن تكون هي السرّة.. والحلفاء وساورا ليسا أكثر من المدينة الريفية أو جلاي؟!

هذا العالم القديم المبهر، بمثابة المركز الذي تنعكس على مرآته
ظلال جلاي وإمتداداتها، مثلما أن الممالك المعاصرة لساورا
(الحلفاء والجوار والجبل والوادي) مجرد صدى للصوت الأساس
الذي تمثله ساورا (جلاي الآن).

تمتعت جلايي ود عربي من دون كل بلدات البلاد الأسيرة، بنوع من الحكم الذاتي، في المراحل المختلفة لحكومات الاستعمار المحلي الجنكوية المتعاقبة، منذ خروج الاستعمار الانجليزي. عندما صدرت المخطوطة التي تضيء مناطق مظلمة من تاريخها، أصيبت الأجهزة الرسمية في البلاد الكبيرة (على اتساعها) بالهلع والخوف، فداهمت المطبعة التي طبعت المخطوطة، واستولت على كل النسخ التي وجدت، واعتقلت أصحاب دور النشر، التي وصلتها المخطوطة، وقامت بمصادرة كل النسخ، التي تسربت إلى المكتبات!

أخذت أقلب الشذرات التي بعث بها إليّ صديقي حسن، والتي قال أنها مجتزأت منتزعة على عجل من أصل المخطوطة، بعد أن تمت طباعتها ككتاب.

في الحقيقة، حسن قال أنه استطاع التسلل، إلى مكتبة ود الخزين، فيما كان ود الخزين مشغولاً بتحضير "قعدة الشراب" المعتادة!

وصف حسن عملية الانتزاع العشوائي لعدد من الصفحات، بطريقة أسطورية، يحسده عليها أرسين لوبين والرفيق جيمس بوند! بدى واضحاً أن هذه الشذرات غير متناسقة وعشوائية، لكنها، مع ذلك تُعطي فكرة ضئيلة عن موضوعها.. وقد تمنيت مراراً أن يحضر حسن وعبد الخال إليّ هنا..

في هذه البلاد البعيدة، لابد أنهما مفيدان في فك طلاسم بعض الرموز وإضاءة مغاليقها، لو قُدر لهما الحضور والتقينا.. ربما يكون بحوزتهما، الكثير والمثير عن تداعيات الأمور، حول مخطوطة جلايي ود عربي وتاريخها المجيد!

ما استوقفني في بعض الشذرات، التي بدى من الواضح، أنها تُرجمت من إحدى لغات البلاد الكبيرة الميته، المزيج من عدة لغات، كما زعم حسن، دون أن يحدد هذه اللغة أو المجموعة التي تتكلمها الآن! هو بساطتها ومباشرتها ووضوحها وانسيابيتها في الحكي!

بالطبع اكتشفت هذا، بعد أن قمت بترتيب الشذرات، على نحو منطقي كما تراءى لي وقتها.. لكن الآن أشك أن ذلك كان هو التسلسل الصحيح. كانت أخبار طباعة المخطوطة السرية، قد تسربت (كما قال حسن) في اللحظات الأخيرة، بعد أن تمكنت المطبعة والناشر السري، من طباعة عدد كبير منها، وتوزيع عدة نسخ بالفعل في دوائر بعض الخواص! ولكن ما أن تسرب هذا الخبر، بطريقة ظلت غير معروفة حتى الآن، حتى تحركت الأجهزة الأمنية الجنكوية بضراوة للسيطرة على تسرب المخطوطة.

ورغم أنها حققت نجاحا كبيرا، إلا أن بعض الشائعات، أكدت أن النسخ التي تسربت، قد وقعت بطريقة ما، بيد عدد من الشخصيات التاريخية. أحد هذه الشخصيات عالم لغوي كبير، والذي ما أن وصلته المخطوطة، حتى سافر بها وأودعها في خزانة أحد البنوك الدولية. والآخر محام إسلامي شهير، صاحب تاريخ يساري معقد، تمكن من سرقة النسخة الوحيدة، التي كانت قد وصلت دهاليز (دار الوثائق القومية) في ظروف بالغة السرية! عبر سلسلة معقدة من السماسرة والوسطاء!

النسخة الثالثة والرابعة والخامسة، حصل عليها ثلاثة من قادة أحزاب طائفية قديمة، وفقاً للشائعات المكتومة، التي خرجت للعلن، أما النسخ المتبقية مما تسرب، لا أحد يدري أين أختفت أو ما هو مصيرها؟!

ردة الفعل العنيفة من قبل الأجهزة الجنكوية الرسمية تجاه المخطوطة، قسمت الرأي العام إلى اتجاهات وتيارات متباينة، عبرت عنها المنشورات والبيانات، التي قامت بتوزيعها الأحزاب السياسية (المحظورة) التي ظلت تناضل طوال تاريخها، للحصول على هامش حريات دون جدوى!

كذلك الاتحادات والنقابات والروابط والجمعيات الطلابية الثقافية والإقليمية والأكاديمية المحلولة و مؤسسات المجتمع الأهلي المستقلة والمالية، جميعها، لم يفتها مهرجان إصدار البيانات في الخصوص!

فيما انقسمت اتجاهات الرأي العام: وفقا لبيانات أصدرتها جهات مجهولة، تستنكر ما وصفته بـ: “السلوك الهجمي للأجهزة الجنكوية، ومصادرتها حرية النشر والبحث العلمي والتواطؤ على التاريخ التليد، لما درجوا على وصفه بـ (شعبنا)!”.

وقفت القوى السياسية المتوالية في ندواتها ومؤتمراتها، التي أقامتها تحت رعاية وإشراف وزارة الداخلية وجهاز الأمن والمخابرات، موقفا معضداً لما اتخذته الأجهزة الرسمية! من إجراءات “في هذه اللحظة الحرجة من تاريخ (أمتنا)..”، بينما القوى السياسية (“المنحلة” وفقا للتوصيف الرسمي لحكومة أبو لكيك الجنكوي)، مضت تشير في بياناتها، التي غلب عليها طابع الإنشاء، و الخيال الرومانسي والاحتفاء باللغة، إلى: “بكرة التجمع جاي.. زي غضبة الهبباي... و .. سوف نخرج للشوارع.. شاهرين هتافنا.. ولسوف تلقانا الشوارع بـ...“.

القوى السياسية هذه قالت: أنها تدين وتستنكر تزييف الحقائق. ولم يفهم أحد ممن قرأوا المنشورات: هل المعني بهذا التزييف المؤرخين والآثاريين، الذين قاموا بتحقيق وتحقيق المخطوطة، أو السلوك الذي انتهجته حكومة أبو لكيك الجنكوي في مصادرة المخطوطة، ونشر

معلومات صحافية وإعلامية زائفة، عن طريق أجهزتها، منسوبة إلى المخطوطة؟!

كانت الاتحادات والنقابات.. خاصة نقابة المزارعين خارج التخطيط واتحاد الرعاة، وعمال المحالج والكتكو، أكثر شجاعة، إذ أدانوا ما وصفوه بالسلوك البدوي الإجرامي غير المتحضر! لحكومة المملكة الجمهورية الجنكويزية العُظمى!

وفي السياق طالبوا بحرية الزراعة والرعي وتلقيط الصمغ، والتعبير والتفكير في شعر المسادير، وإطلاق سراح المعتقلين، ومرونة الحدود بين الولايات وممرات آمنة في مناطق الحروب، ووقف التنقيب البدائي والعشوائي عن الذهب!

وتحدث البعض في الشارع العام، عن قضاء عادل ونزيه ومحاكمة حقيقية لمجرمي الحرب والفاستين وإعدام قادة الطائفية أس البلاء، إلخ..

لكن الطلاب العلمانيين في الجامعات والمعاهد العليا، مضوا إلى خطوة أبعد من ذلك، إذ اتخذوا من قضية المخطوطة السرية، شعاراً للمطالبة بمراجعة عقود النفط، مع الشركات الأجنبية والافراج عن المعلومات الخاصة بالنفط والثروات في باطن الأرض وظاهرها، وإطلاق سراح تاريخ الشعب، وأغفلوا الإشارة لعلاقة الدين بالدولة، فيما بدت للمراقبين من أنصار الدولة المدنية - للمفارقة - مسألة "إطلاق سراح تاريخ الشعب" وتحديد "علاقة الدين بالدولة" في العموم واسعة شوية، كما أنها من أكثر المطالب غموضاً وراдикаلية، على حد تعابيرهم المتأنقة!

إذن أتخذ الطلاب العلمانيين من قضية المخطوطة السرية، لجلاي ود عربي. شعاراً للمطالبة بالحريات والحقوق الأساسية، واتسع سقف المطالب ليشمل كل الحقوق المدنية، حتى أوضاع المثليين في الدولة الجنجويدية!

في أوج هذه البلبلة التي اعترت البلاد الكبيرة من أقصاها إلى أدناها،
إتصل عدد من مراكز الأبحاث والجامعات الأمريكية والأوروبية، بذلك
العالم اللغوي الكبير، وقدموا له عرضاً مغرياً لشراء نسخته، التي كان
قد أودعها خزينة منيعة في أحد البنوك اللندنية، و كخيار ثان عرضوا
عليه شراء صورة منها، إذا تعذر بيع الأصل!

للأسف كان البروف عالم اللغة وقتها، قد بلغ منه الزهايمر مبلغه،
فأصبح شبه ميت سريريا، إذ تعطلت وظائفه الحيوية، وفقد القدرة
على النطق! ولم تمض سوى أيام معدودة حتى قضى نحبه مأسوفا
عليه، فالرجل كان من ركائز سجن البلاد الأسيرة!

ما ألم بالبروف الكبير كان غريبا، مريبا! الأمر الذي جعل الخيال
الشعبي، واللاشعور السياسي يلتقيان في نقطة واحدة: مؤامرة
من الأجهزة الأمنية الجنكوية، لاغتيال كل من يملك نسخة من
المخطوطة السرية لجلابي ود عربي! إلا أن عبد الرحمن ود التوم كان
له رأي مختلف، إذ زعم أن المخطوطة مرصودة في لعنة!

الأوامر التي صدرت إلى مكاتب المعلومات والاستخبارات، في كل
أنحاء المنطقة والعالم، تلخصت في عبارة واضحة: "الحصول على
المخطوطة أو صورة منها" بأي ثمن!

وإلى ذلك شهدت منطقة جلابي ود عربي تحركات محمومة، من
قبل سياح خواجات و أفارقة وعرب، ما ترتب عليه إزدهاراً كبيراً في
الاقتصاد الخراجي و الإقطاعي البدائي (لكن القوي) لجلابي ود عربي. ولم
تتوقف حتى ذلك الحين ردود الأفعال إذ استمرت تتوالى دون انقطاع!

فيما تخلى بعض أئمة المساجد وعلماء اللغة وأصول الدين، عن
وظائفهم التاريخية المقدسة، للجهاد في جبهة أخرى، حماية (لبوضة
الدين) فاتجهوا لأول مرة في حياتهم لدراسة التاريخ!

وهكذا تم في غضون أسابيع قليلة، تأليف العديد من الكتب،
لدحض الوقائع والأحداث، التي حملتها المخطوطة السرية، التي لم
يقرأها أي من هؤلاء المؤلفين!

فسجل أحد الكتب الموسومة بـ (إلجام العوام عن الكلام في شأن
جلابي ود عربي رداً على مزاعم الكفرة اللئام) مبيعات مذهلة في
أفغانستان وباكستان والسعودية والعراق والبوسنة وبلاد الروهنجا
والمغول! الأمر الذي لم يجد له النقاد الحبرتجية والمراقبين العقنالة
تفسيراً بنويوا مقبولاً!

وإزاء هذا التعدي المهني على علماء التاريخ، ترك المؤرخون عملهم،
وانسحبوا في صمت مريب، منشغلين بتجارة التبناك ومحلات المرطبات
والشاورما، التي كتبوا عليها بالخط الكوفير: “كلو وأشربوا من طبيات
ما رزقناكم”.

الأمر الذي لم يستطع أحد أن يفسره لصالحهم أو ضدهم! لكن
بعض خبثاء المدينة، في محاولة لتبرير انسحاب المؤرخين، زعم أنه
رأى أكثر من مؤرخ، لديهم استثمارات صغيرة خلاف التبناك، كفراشين
للكتب على أرصفة السوق العربي، فلم ينكر حقيقة، أن بعضهم
يعمل في دكانه الخاص ببيع التبناك وآخرون اتجهوا لبيع المرطبات
والوجبات السريعة. بل أن بعضهم إمتلك بعض البصات التي تزينت
مؤخرتها بالآية: “سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين”.

وحتى هذه اللحظة، التي أكتب فيها عن المخطوطة السرية
لجلابي ود عربي (قال حسن) لم أتمكن من العثور عليها لتحقيقها!..

VI

كل ما وصل إلى علمي من صديقي حسن أو سواه، هو مجرد حواشي وبعض الشذرات، التي سأستعرضها لاحقاً، على أمل أن أتمكن يوماً من تحقيقها.. فما هي طبيعة هذه الحواشي والشذرات؟!..

أنها تبدأ بوصف جغرافي محض، لساورا المملكة القديمة، ويتضح أن هذا الوصف الجغرافي ينطبق على جغرافية جلالي ود عربي، ما يعني أن ساورا البائدة، هي الموقع الجغرافي ذاته لجلالي ود عربي؟!..

VII

(جلابي ود عربي)، الآن ليست هي “الحلة” التي أنشأها الأسلاف النازحين واللاجئين والمهاجرين وعابرين السبيل.. “جلابي” أصبحت الآن من أحياء الدرجة الأولى، التي تتمتع بكافة الخدمات.

فمنذ الحريق الكبير الذي قضى على كل شيء في جلابي ود عربي، حدثت تحولات مذهشة: إذ أعيد إنشاء المدينة من جديد، وبدلاً عن أولئك الفقراء البؤساء، الذين كانت تعج بهم جلابي ود عربي، حل شعب كامل من المتأنقين في “جلاليهم” البيضاء الناصعة، و بدلاتهم الزاهية، وأصبحت جلابي ود عربي بين ليلة وضحاها، رسمياً “مدينة الفردوس الفاضلة!”.

وهذه المدينة رفيعة المستوى، أصبحت هي الحلم عسير المنال، حتى لبعض رجال الأعمال والسياسة والفنون والرياضيين والمهنيين الكبار، و صفوة المجتمع بصورة عامة!

جميعهم يحلمون بالسكنى فيها.. السكنى في الفردوس الذي كان أسمه ذات يوم (جلابي ود عربي).

ثمّة علامات فاصلة يؤرخ بها لجلابي ود عربي مثل: النزوح الأخير، إغاثة الأب ريغان الذي أنقذ أهالي جلابي ود عربي من الانقراض في سنوات المجاعة.. و حريق بيت أم التيمان، إلى آخره من الأحداث الكبرى، التي مثلت فواصل أو مراحل انتقالية في حياة جلابي ود عربي. “شخصيات حميمة تخطر على ذاكرتي الآن..” قال صديقي حسن، فأجبت:

“ماذا تعني، ومن تقصد؟!”

”سأجيب عن أحد السؤالين..

.. أقصد أم التيمان، التي توهمت، منذ مراهقتها البكرة، عاشقاً
قبط الریح! فظلت تستدعيه من نبض الحروف، في رسائله العاطفية
القديمة، التي تخبئها بعناية!

أم التيمان اختفت في ظروف غامضة.. لم يستطع أي من سكان
جلابي فك طلاسمها!

أطياف عديدة لأناس عرفتهم ذات يوم، في لحظات إنسانية
مختلفة، تتراوح بين الضعف والقوة، يمرّون على خاطر الآن، خارجين
من قلب الذاكرة:

تمضي ست البنات العثمانة، سارة خير الله.. وتمضي ثريا.. يمضي
أدروب.. حسان جداد حسان جداد:

هذا رجل عجيب وغريب، كادت أن تفتك أفكاره المتطرفة بجلابي
ود عربي. فبعد عودته من الأراضي المقدسة، وفيما يبدو أن العرافين
الذين طردوه ذات يوم، هم ذاتهم الذين أعادوه مرة أخرى إلى جلابي؟!
وتعبيراً عن ولاءه وتقديره لهذه العودة أخذ يقيم الندوات في
مسجد جلابي، ولا يكتفي بخطبة الجمعة. كان يُكثر الحديث عن
فرقة الناجية، ويعمم أحكام التحريم، منكلاً بتاركي الصلاة:

”نكاحهم باطل.. ذبيحتهم ومؤاكلتهم حرام.. لا يدخلون مكة.. لا
ميراث لهم أحياء أم أموات.. لا يغسلون ويكفنون.. ولا يُصلى عليهم..
ولا يُدفنون مع المسلمين.. (يتنحج) عباد الله، اتقوا الله.. أستغفروا
الله إن كنتم مؤمنين.. استوتوا يرحمكم الله“.

هذا التصعيد العاطفي شديد التركيز لمنظومة الترغيب والترهيب،
التي شهدتها خطاب حسان جداد، أصاب أهالي جلابي ود عربي البسطاء

بالذعر والقلق والتوتر، فأصبح مزاجهم عكراً وأخلاقهم ضيقة!

ينفجرون لأي سبب، وبدون سبب.. فالرجل أعتد في تدمير معنوياتهم، على الكلمات ذات الوقع الرمزي الثقيل في اللاوعي الجماعي.. وهكذا بين ليلة وضحاها، وعلى نحو مباغت، نَصَب حسان جداد نفسه خليفة الله على الأرض، ووسيطاً سمساراً بين النَّصِّ المقدس وأهالي جلاي ود عربي البسطاء المرزوعين!

لم يترك جداد شاردة أو واردة، تمس حياة أهالي جلاي ود عربي، إلا وأقحم أنفه ملتصاً لها حكماً تحريمياً صارماً، فتدخل بصورة مباشرة في حياتهم.. تفاصيلهم الدقيقة، التي يصعب التماس ربط لها في النَّصِّ الديني العمومي جداً!

قائلاً بأهمية إغلاق باب الفتنة، معتمداً على لغة الخطر الدائم، المحدق بأهالي جلاي ود عربي الفقراء المغلوبين على أمرهم! ولمبالغاته الهذيانة المكثفة، أعتقد بعض البسطاء: أن جداد هو الناطق الرسمي باسم الله، كما أن النصوص التي يستشهد بها، قد نزلت في حقهم وحدهم، وأختصت بها جلاي ود عربي، دوناً عن سائر مخلوقات الله وأراضي كونه الواسع!..

ولولا أن ثلاثة من أهالي جلاي ود عربي، ربضوا له ذات ليلة غاب فيها البدر، وأبرحوه ضرباً، لأصاب الرجل أهالي جلاي ود عربي بالجنون!

خرجت الشائعات بأن الثلاثة الذين أبرحوا حسان جداد ضرباً هم: كسبان الضّاوي وجمال الحلّة وعبد الرحمن العوير..

لكن لم يكن ثمة ما يؤكد هذه الشائعات، رغم التحريات الواسعة، التي قامت بها الشرطة.

وتخليداً لذكرى هذه "العلاقة" الساخنة التي تلقاها جداد في ذلك "الكمين" من قبل المجهولين الثلاثة، أقام أهالي جلابي ود عربي فيما بعد، ضريحاً و نصباً تذكاريّاً لهؤلاء الثلاثة، أسموه ضريح ونصب: الجنود المجهولين!

هذه العلاقة التاريخية، جعلت جداد شيئاً فشيئاً يخفف من ترويعاته للناس، وتدخلاته في حياتهم، خاصة أن الأهالي للثأر منه حاصروه بشائعات مذهلة، جنحت بعضها للزعم، بأن جداد أعتصب ثرياً بنت السّرة في أول أيام مراهقتها!

وكادت هذه الشائعة بالتحديد، تصيب جداد بالجنون!.. فقد أسودّ وجهه وتهدل جفناه، وكان واضحاً أن الرجل لم يغمض له جفن، منذ وقت أطول من الوقت نفسه!

ويبدو أن هذه الشائعة المتقنة بالتحديد، هي التي نجحت في تحجيم نفوذ جداد، إلى أقصى درجة ممكنة. فقد تقلص خطاب اربابه الأهالي البسطاء في جلابي ود عربي، فاضطر إلى إيقاف حملاته إلى أن تهدأ الأحوال. لكن يبدو أن خطابه الإرهابي تمكن من بعض النفوس! فحتى صديقي حسن كما علمت لاحقاً انضم لفترة محدودة إلى طائفة العرّافين التي ينتمي إليها جداد الذي وضح أنه تمكن من توليف بعض القلوب بسخاء مريب!

أخبرتني سارة بعد مضي وقت طويل، من انضمام شقيقها حسن إلى العرّافين، أن حسن في ذلك الوقت تحول إلى كائن مزعج، إذ أخذ يحلّل ويحرم كما يعن له، فحطم التلفزيون الملوّن الذي أقتنوه بعد جهد جهيد، وأحرق الملابس الجديدة لأنها ملوّنة، وألحق بها الصور الفوتوغرافية، بدعوى أن كل ذلك حرام! الأمر الذي دفع والدته (حاجة بخيطة) إلى طرده من البيت.

وبعد مضي بعض الوقت أدرك حسن خطأه، فوَسَط سارة لدى أمه، وأخوانه فسمحوا له بالإقامة الجبرية، ريثما يتأكدون أن الله رد صوابه.. تذل حسن وطلب السماح فسامحته أمه “قلب الوالد شفوق!”..

عاد حسن لكن لم يعد لديهم تلفزيون أو ملاءات ملوثة!

في ذلك اليوم الذي جاء فيه حسن طالبا السماح، فرح أشقاؤه واحتفوا به بإقامة بارتي صغير، دعوا له الجيران والأحباب، الذين كانوا يتساءلون:

“ما المناسبة؟!”

“لقد عاد حسن”

كانت فرحة الحي بعودة حسن لا تقابلها فرحة، احتفى به الجميع حتى أن خلَّنه من شلَّة عبده الخال، عزموه على كأس من عرقي الجوافة البكر، فشرب حسن في ذلك اليوم، كما لم يشرب من قبل، وغني: “سامحني” حتى الصُّباح..

كان عبده الخال أكثر أفراد الشلَّة سعادة، فهو صديق طفولة حسن وصباه وزميل دراسته، وشريك مغامراته العجيبة! كما أنه من أكثر الذين تضرروا من تلك التحولات “الجدادية” التي اعترت حياة حسن قال له مازحاً وهو يمد له كأس عرق الجوافة الثالث:

“الباري الجداد بوديهو الكوشة”.

فضحك حسن دون أن يعلق، وهو يحاول نسيان تلك الأيام، التي كف فيها عن الأكل مع عبده الخال في صحن واحد، بدعوى أن مؤاكلته حرام! ما أضطر عبده الخال الى طرده في نهاية الأمر، وتحذيره من زيارته مرة أخرى!

VIII

ما قالته الميرم كلتوم لسلمي خير الله، عندما جاءتها لتفتح لها الكتاب، لم يختلف كثيراً عما قاله لها أبكر المعراقي بعد ذلك بوقت طويل. قالت لها الميرم:

“ستخرجين من عتمتك إلى إشراق، يملؤك بالنور. فلا ترين سوى درباً أخضر، وجُدرٌ تسلقتها نباتات الخريف، وبين بين نهريْن من اللبن والخمر، على ضفائيهما تنهض أشجار المانجو، التي تُغرد بين تلافيفها الطيور الملونة، وتجلس تحتها الطواويس والغزلان.

ستخرجين من عتمتك إلى بوح ندى، يخاطبك الناس بالشعر، وتتكلمين بلغة العصافير، وتدركين أول الأنبياء (دالي) وتخرجين من كتابه كما خرج علي.

تحكى له عن طيِّ الزمن، والمسافات والوجوه المغبرة، وعكرة خلفتها ورائك. فيبادلك الحكمة، وبيتسم ثم يسجد وتنتظرينه وتنتظرينه.. لكنه لا يرفع عن السجود، إذ يغادر إلى الإشراق.”

خرجت سلمى خير الله من الغرفة المعتمة، دون أن تعير الصبي الصغير، المتكى على مواربة الباب، أدنى التفاتة!

مضت في الدرب الملتوي، تتجنب المستنقعات والبرك الصغيرة، في الزقاق المظلم. وتخشى أن تهاجمها كلاب الحي على حين غرة..

وهي تخلص ثيابها حائلة اللون، ترتدي قميص نومها الداكن الخشن، وبالها مشغول بالاغتراب، الذي تخطط له، بعد أن خلقت وفاة والدها المبكرة أوضاعاً بالغة السوء، سألتها أمها بلامبالاة:

“أين تأخرت كل هذا الوقت؟! ”

فأجابت باقتضاب وهي تستلقى على سريرها:

“أخذتني سارة إلى العرافة”

كانت صديقتها الوحيدة سارة، قد ألحت عليها، بالذهاب معها إلى الميرم كلتوم العرافة، ذات المهارات المتعددة، فهي تخط الودع وتقرأ الكف وتضرب الرمل وتفتح الكتاب.. بعد أن تضع أعواد البخور، على المباخر العديدة المنتشرة في الغرفة الصغيرة الضيقة، بضوئها الكافي و الموحى، ليتصاعد الدخان السحري، محيلاً الرؤية إلى ضبابية متقشعة، مسرباً الخدر والإحساس بالوجع اللذيذ الذي يختبئ في كل شيء.. حتى قطع الأثاث العتيقة..

كانت سارة دهشة للسؤال الذي يطرحه حال سلمى، فهجست بالإجابة عن هذا السؤال. باصطحابها إلى الميرم كلتوم، ولية الله الصالحة، التي ولدت مختونة، كما أشاع عنها عبد الرحمن العوير عند رحيله إلى جلالي! وعزفت عن طلب الرجال، كما يحكي التاريخ القريب لجلالي ود عرّبي والمدينة الريفية!

ماء شبابها يتجدد كل يوم، كأنه لا يغيض! فهي نصرّة لا يغشاها غصن! أو يخط عليها شيب!

وعندما حدثت سارة الميرم كلتوم عن سلمى خير الله. تبسمت الميرم عن أسنانها الناصعة، المكتملة، ولم تنبس بنت شفة!

في البدء رفضت سلمى الذهاب، ثم لآئت! وكأن قوة خفية نهضت فجأة، تدفعها دفعاً. وعندما خرجت من غرفة الميرم، كانت سارة قد أختفت من الصالة، حيث تركتها قبل أن تدخل على الميرم، التي مضت بها في دروب ذلك العالم البرزخي، تدفعها دفعا لقطع وهاده وسباسبه، إلى أن توقفت عند شجرة (الألوب) في المنتهى! فتركت سلمى تسير وحدها، كطيف سابح في بحر من النور الكلي!

لم تبحث سلمى عن سارة، وغادرت بيت الميرم في عجل، وهي تتعثر في قطع الأثاث بطريقتها. دون أن تشعر بها. إلى أن لفحها تيار هواء بارد، فأدركت أنها منتصف الرُّقاق المفطِّي إلى الشارع الرئيسي. كانت سلمى منذ طفولتها تبدو كغزالة نافرّة.. فعندما تبدأ الفتيات في لعبة (الحجّلة أو عريس وعروسة، إلخ..) تقصي نفسها كوزينة على ضفاف بحيرة شاسعة، لا تريد التوغل.. تتركهن يمرحن وحدهن وتراقبهن وهي تنشد:

“الرّارعينا في كبد البوصة.. ئي، ئي.. مو نجيض..

الطير كّي البرسوسة..

الرّارعينا في كبد الغابة.. ئي، ئي..

مونجيض.. الطير كّي الورتابة..”

وظلت هذه الأنشودة، تعزّية وحدثها، منذ ذلك الوقت.

وكانت حين ترغب في فصل نفسها عن العالم، الذي أخذ يتهشم حولها، بعد أن فضحهم حسان شقيقها الكبير في الحي ونكس رؤوسهم، تتوغل منسحبة إلى داخلها، وتدخل في حالة لا شعورية، وتبدأ في ترديد أنشودتها المحببة، بصوت عميق، ملؤه الأسى واللوعة. كأن طقسا بكامله، تؤديه جوقة من الرهبان.. إلى أن يخترق صوت سارة كالمعتاد، في كل مرة عاملها الطقسي، لتكمل الأنشودة:

“الناس عرسوا..

انا في النميم يا يابا..”

هكذا تشرح سارة عاملها في كل مرة، فلا تملك سوى أن تنظر إليها بحبة، وتمسح حبات العرق من وجهها، وتبتسم دون تعليق!.. تقول لها سارة:

“جاني عريس”

“مبروك”

“وأنت؟”

“مالي أنا؟! ”

“يجب أن تتزوجي”

“ألا ترين كيف هو حال أسرتي، ساغترب”

واغتربت سلمى..

سنوات غربتها تَمضي بخطى وئيدة، كتسحب الشمس شيئاً فشيئاً، قبل أن تغيب، وطفل سارة الذي أرسلت لها صورته، في السنة الأولى لولادته، يكبر.. يصير صبياً وسيماً، تطل شقاوة أمه من عينيه.

تبتسم سلمى عند هذا الخاطر، وتُدخل آخر الصور، التي أرسلتها لها سارة قبل شهر، للصبى أليف الملامح، صبوح الوجه.. في إطار مذهب حذاء التسريحة!

في غربتها المترفة، تفتح حياتها على بوح قديم، ظنّت أنها خلفته وراءها.. بوح يُطل برأسه من رَحَم الماضي، بين آونة وأخرى.. يخزّ رغباتها الغامضة، التي ليست لديها فكرة واضحة عنها!

فقط محض رغبات في التلطي والتشطي.. تخرج منها إلى صلوات سرّية طويلة، تختتمها بتلك الأنشودة التي تحبها، دون أن يخترق صوت سارة عالمها الطقوسي، ويشرّخه!

تتفجر كوامن شجنها لوجه غامض، تعرفه ولا تعرفه، يجئ بملامحه المبهمة، من خلف ضباب المغيب، لحظة ما قبل الفجر الغامضة.. يصبح كيائها كله مشدوداً كوتر كمان، عميق الجرح والآهة. أسيان كندی فجرٍ شاحب.. يخرج ابن سارة من الصورة..

يعزف حتى تكَلَّ يدها من العزف المنفرد، فيتوقف عن العزف،
وتخرج سارّة، من سطور الخطاب..

تشدُّ الوتر (وجدان سلمى) وتعزف نغما مألوفاً عن الشجن
والترقب وإنظار المستحيل، فتهتف فيها بكل التحفز العميق: (أنه
هو!) فتتوقف عن العزف..

تستند إلى ساق النخلة الوحيدة في الحوش، كالمنهارّة. تدخل فيه..
تتلاشى!.. وعبثاً يطول إنتظارها لخروج سارّة، التي كانت قد احتضنت
إبنها، وغابت في سطور الخطاب..

تعيد سلمى الصورة إلى التسريحة، تلو كها الهواجس والظنون،
فتحترق بنيران الأسئلة، إلى أن يأخذها النوم، وتمضي بها الأحلام إلى
عالم مضى!

تتلّفت حولها لترى مصدر الضوء، وعبثاً تبحث.. فإضاءته من اللا-
مكان كصوت طائر مارتجلو: لا شرق. ولا غرب.. لا شمال أو جنوب.
تتسلق حائطاً أخضر. يبدو لها ناعماً. وتسبح بعده في نهر من الخمر.
تتشرب مسامها بالخدّر، وتتسع رؤاها ورؤيتها، فتدرك الضفة
الأخرى منهكة..

وهى بين الصحو والنوم، تحط على كتفها يمامة، وتقترب غزالة،
لتجلس إليها في حنو. تحكي لها عن الذي وجدته ملقى على شاطئ
البحر وحيداً، ينضح بالعذاب. فسقته من ثديها..

“كان ينضح بالعذاب!”

تؤكد.. فتقول اليمامة:

“العذاب غسول الصالحين”

.. و تحلق، تحلق بعيداً بعيداً.. لتجد سلمى نفسها بين منزلتين..

لطالما حلمت في تلك النهازات البعيدة، بوجهه عجري الملامح. يأخذها من قلب حلقة (الذكر)، ويمضي بها في مسارات قائضة بالتوجس، مشحونة بالمغامرة، بين احتمال موت جدير بحياتيهما، وحياة لا تدرکها تلك الهواجس والظنون، التي عانتها في أسى والتياح، بانتظاره المضمن! كطاقة بعث - كانت حياتها- تخرج من قلبٍ دهاليز التاريخ وأزقته وحواريه، في مدنه المدفونة.

وعندما التقت (علي) تصورته في البداية هو.. لكنها ما أن توغلت في عالمه، واكتشفت علاقته المعقدة بأم التيمان وست البنات العثمانة وثرىا، وكل الحكايا التي عرفتها عنه (ولم تلمح له أبداً بأنها عرفتها).. أصيبت بانقباض خفي!

لطالما حاولت التخلص من علاقتها غير المسماة به، وكثيراً ما كانت تعزّي نفسها بمحاولة إيجاد المزيد من الإجابات لرفضها له، فتقول:

“على كل حال علي يصغرنى كثيراً”

ظلت تقاوم سطوته عليها، حتى اختفى من حياتها تماماً! لكن ظلت الطاقة هي نفسها.. تتفجر هكذا كبركان تجتاح حممه كل شيء، تدفعها دفعا لارتياح عوالم لا تدرکها. فقط تحسها. وتكاد تتلمسها. بأناملها التي ترى ما لا يُرى!

حاولت أن تغلق قلبها دونه، لكنه يفتح على شبح وجهه، غامض الملامح.. وجهه المحزون، بخذلان حواريه، وخيانة حسن الصديق القريب (مع ثريا).. وجهه المندفع من عالم سرمدي، بعيد.. بعيد.. لا تدرکه الأبصار.. فتهتز سلمى كنخلة، في مهب الرّيح، يحاصرها “التساب” في غمرة الإدراك لوجودها غير المدرك!

وتمضي في رحاب عالم تصله ولا تصله. وإذ تصله لا تجده. وهو فيها. وهي فيه. يتماهيان، فلا يصبحان واحداً، بل صفرًا.. مركزاً

للواحد، وواحداً على هامش الصفر..

(تتوحد) فيه، ليتلاشيا معا، ولا يعد لهما وجود: (صفر!)..

وخز شفيف وشقي، يجبرها على طرد هذا الخاطر.. وخز يتكون كدمل.. يتحفز للانفتاح على نافذة متزبّة. بتعاقب الفصول.. لثمة خفية تنزعها من مكانها، تتلّفت حولها، وتستكين. خدّر.. بلسم، يهدئ صبوتها.. عدّابها الجرح! فتترقب وجهه أكثر.. وجهه الغامض يلوح من “شفق” المغيب، فجأة، كما سعد فجأة، تاركاً صاليبه: حيارى، مروعين مما شُبه لهم، في ذلك الفجر الذي ينذر بالمخاوف!

يمضي بها.. يُقلق أحلامها، ويعزف على الكمان أغنيات الحب والريد للتي طال انتظارها.. الجرح، العذاب.. لمخلصها من عدّابات الوصول (العذاب. العذاب غسول الصّالحين!)

تضج بالأنين.. الشجن وتأوهات.. ألم الغربة القاحلة وأحترقاتها.. وهذا الموت الذي يدنو منها حثيثاً، ليقودها إلى (الفناء)، مبدداً تصوراتها..

ذاك الوجّه الغامض، الذي يتبدى عن أوتار الكمان، وتلايف الشجن عصي البّوح.. يقلق وحدتها.. تتشظى به، فيمضي أكثر لوعة والتياح، ويمضي ولا يجيئ.. يغيب في سرمديته.. وتحت وطأة الانتظار تغوص، في أرخبيل شائك. يدفعها الشوق.

تعبه ملأى بالجروح المتقيحة، فتتمدد تحت نبات (اليقطين) وتهتف:

“ما تلك التي بيمينك؟!..”

تتشكّل معهما (هُويّة واحدة):

“بيميبي محض نور”..

ثم يُطلّ وجه المدينة الريفية، و جلاي ود عربي خارجة لتوها من قلب التاريخ.. و تطلّ الوجوه التي عرفتها ولم تعرفها.. يطلّ وجه أم التيمان في ذلك اليوم، وقد قررت أن تغادر جلاي ود عربي الى الأبد.. دون أن تُفصح عن السبب الحقيقي، إذ اكتفت بالقول:
“كرهت هذا المكان”..

يطل وجه (علي- آري- سورنق- دالي) وذلك الشعور بالذنب في عينيه، كلما جاءت سيرة أم التيمان (أو لنقي، أو سابا سليلة الجنيات) بينهما عرضاً..

أطل وجه الميرم، كانت منتصبه.. تتقدم تجاه سلمى ببطء، تعبر إليها من مكان بلا ملامح، حيث تقف في الغياب!

تبدل وجه العرّافة، حل محله وجه ابن سارة شاباً فتياً، متلفحاً ببردة الكتّان، الناصعة ذاتها.. تقدم منها فاتحاً ذراعيه!

لحظتها كانت أحلامها (هي/ سارة) يغلب عليها الغموض والألق.. وهو يقترب.. يدنو منها.. يستحيل إلى لا شيء. يتبددان في الضوء، الذي يغمر أسقف البيوت الواطئة، الشجر، أوكار الطيور، جحور القوارض، حظائر الحيوانات الأليفة، ووجوه المازّة.. عابري السبيل!

تتلاشى ذكرياتها القديمة، لتتشكّل اللا-ذكريات.. يتلاشى الحنين في الحنين.. في ذكريات الطفولة، شارع البيت، أشجار الحوش الكبير، قهوة منتصف النهار، الطريق إلى محطة المواصلات وعاصمة بلادها الملبدة بالحدّر..

حينها لأسرتها، لعاملها ذاك.. النَّاس والأشياء.. يتلاشى كل شيء! يتشكّل فقط وجه الحبيب، في بُردته الكتّان، الناصعة. يقترب شيئاً فشيئاً إلى سطح عالم الحنين المنهار في الحنين.. ليحل مركزاً لوجودها وكيانها وحسها.. ويلعبان اللعبة ذاتها: يكر فتفر. تفر، فيكر.. ثم

يدهمها ليلاً ليخطف منامها، ويقطف وردة جرحها، ليغذي الحنين
من بوح تلك اللحظات الغامضة، التي ربما عاشها أو لم يعيشها
معا، أو عاشتها سلمى وحدها!

فقط تشعر سلمى بسارة، تتقمصها.. وابنها يحتضنها حتى تئن
ضلوع سلمى. ويغلبها إرهاق الحنين، فتغرَّق في النَّوم!

أحلامهما (هي وسارة) غلب عليها الغموض والتوجع، المستمد من
أعماق غربتهما.. ركاميهما.. البلى الذي حاصرهما، وكل التخثر الذي
حاولتا تمزيق أغشيته، للإفلات من تبدد الزَّمن والمكان، والشروع في
الحُلْم..

تكلم معها (علي) كثيراً عن سارة:

“يجب أن تتكلمي معها، فقد أصبحت سيرتها على كل لسان..
الشباب يستغلون كونها مطلقة”

“لا أستطيع”

“لماذا.. أنت صديقتها؟!”

“وأنت كذلك”

“غير ممكن. وأنت تعلمين ذلك جيداً”

“هل تشتهيها مثلهم؟”

“إنها بالنسبة لي: أخت.. أخت صديقي حسن”..

فتهز رأسها وترم شفيتها؛ تنهي الحوار دون أن يلوح في عينيها أنها
اقتنعت بشيء!

IX

في هذا الوقت، كانت ثمة ظاهرة لم تألفها جلاي ود عربي من قبل، قد بدأت بالبروز، هي ظاهرة "الرباطية"، الذين يقطعون الطريق على النَّاس، ليلا في الخلاء الواسع، الذي يفصل بين جلاي ود عربي والمدينة الريفية، فيجردون (المارّة في طريقهم من أو إلى جلاي) تحت تهديد السلاح الأبيض أو النَّاري من ممتلكاتهم القليلة!

وهكذا أصبح الخروج أو الدخول إلى جلاي ليلاً، من الأمور التي تحتاج للتسلُّح بالشجاعة والهرאות الغليظة، أو الأسلحة البيضاء أو النارية!

ولأن جلاي ود عربي لم تدخلها شبكة المواسير بعد، لأنها خارج التخطيط، كان الناس يلجأون لشراء المياها من عربات الكارو البرميل، وبعد أن تمكن حسّان جداد من حفر بئر داخل فناء المسجد، حدث إنفراج في أزمة المياها الى حد معقول!

فأحيانا لا تزور عربات الكارو البرميل "حِلّة" جلاي ود عربي، لأعطال تصيب البوابير التي تعمل بالجاز عند الشاطيء لضّخ مياها النيل في براميل الكارو، فيلجأ أهالي جلاي ود عربي في مثل هذه الحالات إلى بئر المسجد، محتملين التوترات التي يصيبهم بها جداد في سبيل "باغة" أو "جردل" من مياها البئر!

وتعبيرا عن رفض ست البنات العشمائة لابتزازات حسّان جداد لهم في مثل هذه الحالات، كانت قد اتفقت هي وجاراتها ذات مرة، فأوقفن ثلاث عربات كارو برميل وقلن لأصحابها، أن إمام المسجد يقول لهم، أن يفرغوا المياها في بيوت زوجاته (ست البنات وجاراتها) وعندما ذهب أصحاب الكارو بعد إفراغ المياها، إلى جداد يتقاضون منه

ثمن المياه، كان الرجل دهشاً! فنفى أنه قال شيئاً من هذا القبيل بل مضى ينفى بأغلظ الإيمان أنهم بين زوجاته، وعند المواجهة معهن أنكرت ست البنات وجاراتها، بل وأنتهرن أصحاب عربات الكارو:

“هؤلاء لسن نحن.. نحن لم نفعل شيئاً.. ربما تعنون نساء أخريات”

وفي الحقيقة أن أصحاب عربات الكارو، لم يركزوا في الوجوه، خاصة أن أهالي جلالي كلهم يتشابهون، رغم إعتقادهم الغامض أنهم مختلفون! فحدثتهم أنفسهم، بأنهم ربما فعلاً، قد أفرغوا مياههم في بيوت أخرى! فلم يستطيعوا الاصرار على مطالبة ست البنات وجاراتها..

ولإدراك جداد أن ثمة شائعات قادمة ينذر بها المناخ العام، إذ تكوّنت للرّجل خبرة كافية بأهل جلالي، اضطر أن يدفع ثمن المياه لأصحاب الكارو البرميل، قاطعا الطريق على أي محاولة لنسج حكايات وروايات من هذا الحادث العرضي! الذي أدرك منذ البداية أنه “من عمایل الفاجر المطلوقة ست البنات!”

حاول أهالي جلالي ود عربي، عن طريق العون الذاتي، أن يحفروا لأنفسهم بئراً أو بئرين، وبعد اختبارهم لعدة مواقع، اكتشفوا أن الموقع الوحيد، الذي يحتوي على احتياطي جوفي عذب، هو ذلك الذي نقل إليه حسن جداد الجامع، فانطلقت الشائعات أن: جداد دفع الكثير من الرشاوي لهيئة مياه المدن، ولذلك كان يعرف سلفاً أن المكان الوحيد، الذي به احتياطي جوفي هو هذا الموقع، الذي شيّد عليه المسجد، ولذلك نقل المسجد إلى هذا الموقع عن عمد دون إستشارة أحد!

في هذه الفترة كانت حكومة أبو لكيلك الجنكويزي، قد أصدرت فرماناً، بأن تدفع المساجد فواتير المياه والكهرباء، وعوائد الأرض إلى آخره في نظام المكوس والجبايات والريع، الذي أشتهرت به حكومة الجنكويزي، أسوة بكل العقارات في البلاد الكبيرة!

أصاب هذا الفرمان عدداً مقدراً من مواطني البلاد الكبيرة، وجداد شخصياً، بصدمة كبيرة. ولكن جلالي لم تأبه للأمر كثيراً، فجلالي ود عربي لم تدخلها المياه أو الكهرباء الحكومية، لحظة صدور هذا الفرمان، كما أنها خارج التخطيط، بالتالي ليست عليها عوائد على الأرض. كما أن أعمال مواطنيها خارج دائرة المظلة الاقتصادية. حتى أن أثريائهم يفضلون دفن أموالهم على وضعها في بنوك الجنكويز للصوص!

زُبدة القول أن جلالي كأنها ليست جزءاً من جغرافيا وتاريخ البلاد الكبيرة، ومع ذلك “نُخبة جلالي” من الذين تلقوا قدراً من التعليم، مكنهم من فك الخط، وكنوع من التضامن الإنساني، مع أحياء المدينة الريفية داخل التخطيط، تصدوا لما حمله هذا الفرمان، بالكتابة على الصحف الحائطية، التي كانوا يعلقونها في دكاكين وكناتين جلالي ود عربي، حيث أكدوا أن المساجد التي يرتادها عامة الشعب (ما أطلقوا عليه السواد الأعظم)، يجب على الحكومة رعايتها، لكن تلك التي تتبع للعرّافين الجنكويز أو أي من حلفائهم في الجماعات الشبيهة، التي تعتقد أنها فرقة ناجية، يجب أن تدفع الفواتير والضرائب والمكوس والقبانة والطلبة والذكاة وأي نوع من الرسوم القديمة والجديدة والتي ستستحدث (ينبغي أن تتحمل الفئات الناجية تبعات نجاتها كاملة، فلا يعقل أن يتحمل الشعب، الذي سيمضي إلى الجحيم قدماً، من عرقه عبء دفع الفواتير عنها!) فيخسر ماله بعد أن خسر آخرته! كما يزعم العرافين الجنكويز (من ليس معنا في حزبنا، حزب الله فهو مع حزب الشيطان!) وهكذا اعتبر عدد من المراقبين المتنورين؛ أن ثمة “خطاب علماني” يتشكل في جلالي، يعتبر فتحاً مميّزاً في مجال الفتاوى، التي تعني بالتراث وقضايا العصر.

وعندما علم المتعلمين، الذين أصبحوا يوصفون بـ (علماني جلالي) بهذا التقرُّب أعجبهم كثيراً؛ رغم أنه كان غامضاً بالنسبة لهم وغير مفهوم!

إذن وجد خطاب العلمانيين في جلالي قبولا منقطع النظر، في المدينة الريفية والأحياء المجاورة. بل تطور الأمر إلى أن نقلته “وكالة رويترز” وعنها نقلته وكالة الأنباء الفرنسية و”صوت كولونيا” والإذاعة السويسرية، وعدد من وكالات الأنباء الدولية الأخرى.

وتعاطفت معه ردود أفعال عالمية مقدرة، فقد تحركت على إثر ما أذاعته رويترز، منظمة الدفاع عن حقوق الانسان المغلوب على أمره، وجمعية المعذبون في الأرض الإقليمية، ورابطة الفلاحين والعمال الدولية، وأصدقاء الجراد، والعفو والأزمات الدولية ومراقبة حقوق الإنسان وكهرباء بلا حدود، وكتلة الأقلية السوداء في جوهانسبيرج، والرابطة العالمية للسكن العشوائي والحياة البرية.

وقد أوردت إذاعة “سوا سوا” الأمريكية الموجهة، في سياق نشرتها حديثاً مفخماً ومفخخاً، يعبر عن وجهات نظر لم تسمع بها جلالي، التي ليس لديها ناطق رسمي، لديه كل هذه القدرة على التحليل، وكانت مونت كارلو، تستهل تحليلاتها الإخبارية عن ردود الفعل، حول وجهة نظر علماني جلالي ود عربي بـ:

“وقد قال العلمانيون في جلالي ود عربي..”

وفي واقع الأمر أن علمانيي جلالي ود عربي (إن وجدوا) فهم ليسوا علمانيين بالمعنى الذي تحدثت عنه هذه الإذاعات، فهم أولئك البسطاء الذين من الممكن أن يقض مضاجعهم أي خطاب ديني عاطفي، والحكمة تأتيهم “طيف طائف” مع تهاوؤيم “البنقو والحشيش، أو تجليات “عرقى البلح البكر”..

هذا هو كل ما في الأمر ببساطة..

الفصل الثاني

I

وقتها كان أبكر المعراقي (الذي كان أسمه ذات يوم آدمو) قد وفد حديثاً إلى جلاي ود عرِّي من مكان ما (كان حريصاً على التخلص من شخصيته الحقيقية مستكيناً للعزلة)..

حياة أبكر المعراقي في شخصيته التي تخلص منها (شخصية آدمو القائد الثوري) قبل أن يلجأ إلى جلاي ود عربي منتحلاً شخصية أبكر المعراقي.. كانت غريبة لغير المقربين منه، وغامضة في الآن نفسه! تنهض في قدرته على تسريب تلك المشاعر المتناقضة للآخرين: التوبة، القدر، الثورة، التراجيديا، القلق، الشغف والموت.

وكلما أقتربت منه أكثر، اكتشفت أن هذه المشاعر المتناقضة، هي إختصار لمعنى الحب والقضية (الوطن) عند آدمو!

لطالما حاول آدمو السيطرة على أبولكيلك الجنكويزي، مدفوعاً بهذه المشاعر المتناقضة، ولم يجن سوى المقاومة، التي كادت أن تودي بحياته، لأكثر من مرة، لولا نفوذه وتراجعته عن الاستمرار، في محاولة التأثير على أبولكيلك. كان آدمو رجلاً استثنائياً، لا تنقصه الشجاعة ويدرك أن أصعب شيء لمن كان مثله، الابتعاد عن الشَّر، وظل أبو كيلك هو التجسيد الحي لما يطلق عليه، آدمو (شراً!).

حبيبته حليلة "الورتابة" تكرر مراراً بخفوت:

"نظراتك تخيفني.. تتقبنني، من أين جئت بهذه العيون؟"

وكعادته عند تلقف يدها، لا يعلم ما هو أفضل شيء يمكن قوله لها! ولا يزال آدمو رغم مرور سنوات طوال يتذكر في قيلولاته المتكاسلة، كل ما مر بحياته. من مرارات وأسى.

كأن كل شيء حدث البارحة فقط.. وبين كل ذكرى وذكرى، يتوقف ليحاسب نفسه (لو كنت صمت وأغلقت فمي لما جرى الذي جرى، ولما تورطت في شخصية أبكر المعراقي.. هذه الشخصية الكريهة إلى نفسي..) يتأوه آدمو في وحدته، متكئاً على بقايا من ذكريات، تشظت في هجير السنوات العجاف..

كثيراً ما يرى الحيّرة، تأكل عيني حليمة الواسعتين.. حيرتها منذ أول لقاء لهما في سني حياتهما الباكرة. حين أخترقا عالميهما، غائبين في غلالة برزخية تقاطع فيها الأم مع القسوة والنيران التلطي، معلنان مواجههما الوليدة للوادي. وأشجار القمبيل. وشجر القنا، و..

منذها بقدر ما اقتربا من بعضهما، ازدادت المسافة بينهما إتساعاً.. فقد أدرك آدمو أنها لا تنتمي إلى عالمه..

ذلك الحس الأسطوري، الذي يهيمن عليه ويتغلغل في روحه وجسده!.. ولكن ظل مخلصاً لها! وظلت وفيه له.. كانت سعيدة بسيطرته عليها، وكان يفهم دخيلتها!

ومع ذلك ظل آدمو لسنوات طويلة، يشعر بالحاجة للحب، في كل ما هو حوله.. لا يحتمل كلس الحياة.. يعاني آلامه وحده، دون أن تصدر عنه آهة واحدة.

منذ ميلاده، ولدى دخوله "الخلوى" أخذ يفكر في كَوْن اللُّغة.. اللُّغة التي يحفظ بها سور الكتاب المقدس.. و لغة قبيلته المختلفة عنها.. وفي هذين الكونين أخذ يتحرك، لاستكناه هذا السّر الذي يبدأ من هنا وهناك بين تلافيف الآيات، وامتون الأحاديث. وحواشي سيرة النّبي العربي.. كان سؤالاً جارحاً يتغلغل داخله، لينفتق عن ضباب يفضي إلى ضباب آخر!

قدر خفى ذلك الذي قاد آدمو إلى المدرسة الابتدائية، دوناً عن

أقرانه، في القرية الصغيرة، الرابضة على ضفة الوادي. حذاء دغل القميل..

وبين مرحلة وأخرى، كانت هويته تتمزق لتلتئم وتلتئم لتتمزق هويته التي صاغها أبواه.. وأهل قريته. بأسحارهم وطقوسهم وطبيعة الوادي الناهض أسفل الجبل..

كانت لغته الأم تبتعد، لتحل العربية، التي التهمها ذكاه الحاد محيطاً أسرارها، وأطماعها وهيمنتها على لغته الأم!

تعرف آدمو على التاريخ الإنساني وهو يودع آخر مراحلهِ الدراسية.. أدرك صراع الإنسان في محاولاته الدائمة للسيطرة على قوى الطبيعة، والموارد.. ولم يستطع تفادي رؤية تاريخ قريته، يتحول إلى أشلاء، بين معان تاريخ أوروبا والعالم، وبلاده الكبيرة التي يشقها النيل كفلقتين، لنواة نصفها متغضن كالعرجون القديم.

المعارف المتناقضة و المتصادمة، فتحت وعي آدمو، على أسئلته الحارقة، التي ستلازمه في قوادم الأيام.

تناهشته الأسئلة، ففتح كيانه على مصراعيه، متوغلاً في عزلة عميقة، لم يخرج منها إلا وهو حاملاً السلاح ضد أبو لكيلك الجنكويزي.

قبل سنوات طويلة من اتخاذ آدمو لقرار الثورة المسلحة، داهمت حليلة غربته ووحدته القاسية.. على شفة الوادي.

جلست دون أن تستأذنه.. التفت إليها ووجهها يلتف بوجهه.. كان صفير الرِّيح يتخلل الوادي الوداع.. غابت في مسام الرِّيح.. تبعها آدمو، وهو يجذبها إلى مركز الرِّيح..

وغارقين في أنينها ولوعتها وهي تحتك “بقش القطاطى وصريف الحيشان، المزروبة بعيان الدخن” كتبا أغنيتهما الحاملة!

كان آدمو يُدرك أن حليلة تعلقت به منذ الصغر، لأنه المحسوس أمامها. تنظر لقصتهما معا، كقصة حب يانعة، وهما يتسللان خلسة من (خلوة الفكي ابراهيم شطة)، إلى الدَّغل في ضفة الوادي أو الغابة حيث (صندل الردوم) والدروت، أعلى قوز السمسم)..

كان هدوء حليلة يضيفي على جنوحه طابع المغامرة التي يجب، وبشعائرها المقدسة عند لقاءتهما، تفتح بوابات السحر على مصاريعها، فتتعلق عليهما، نوافذ الشجن الريفي، ويتماهيان معاً في أنشودات أثرية لم تكتشف، متجذرين في القصص المنسية للبلاد الكبيرة!

غموض آدمو هو ما يدفع بقلق حليلة إلى أقصى الحدود: عندما يغيب دون رسائل، عندما يعود دون ترقب.. تتمنى ألا يسافر مرة أخرى أبداً..

هكذا ظلت حليلة تعاني توجدها منذ سنوات دراسته الأولى في المدينة، حتى لحظة دخوله في تلك العزلة البديعة، التي خرج منها تائراً يحمل السلاح، معلنا تمرده على أبو لكيلك الجنكويزي..

كثيراً ما كان حرص حليلة على لفت أنظار الآخرين يقلقه، ويفجر داخله كل كوامن التوتر الأزلي، لروحه الملتفة في “دمور” أبيض يحاصره في أحلامه النادرة!

جمال حليلة.. جاذبيتها وسحرها، الذي يشبه تلك الإحساسات المتسرِّبة، من بوح آلهة المعابد الغابرة!.. كل شيء يخص حليلة يدفعه إليها دفعاً، وتتسع المسافة بينهما أيضا في الآن نفسه؟!

II

بعد محاورات عديدة، ووعده ومواعيد فاشلة، في إطار من السرية،
المتسرّبة بسلسلة معقدة من الإتصالات والوسطاء.

بعد كل هذه المحاولات، نجح آدمو في لقاء مندوب (اليانكي)..
تحدّث آدمو عن آلام شعبه وأمجاد أسلافه وجهودهم الدبلوماسية،
قبل هيمنة (الجنكويز) علي البلاد الكبيرة..

تحدّث عن البُعد الإنساني لقضيته وواجب الأسرة الدولية. وكان
مندوب (اليانكي) يتسم في خبث ودهاء!

في تلك الظهيرة القائظة؛ التي ألتقي فيها آدمو اليانكي، كان
مشحوناً بانفعالات الأرض حليمه.. ومشاهد الرفاق الذين سقطوا في
غارات الجنجويد، علي القرى والحللات.. حاصرته صورة أمه العجوز
(خاطرة) وهي تحترق داخل قطبتها المحاصرة بالجنجويد..

جاءته صورة أبيه (لأول مرة يراه يبكي).. كان مقطب الجبين، في
صمته كلام، وفي عينيه تمتزج مشاعر شتى..

أدرك آدمو أن الجنكويزي أبولكيلك اختطف حليمة للضغط عليه..
التاع.. هاجت دواخله.. كانت ذكريات الذين لطالما أحبهم بعمق،
وترسخ وفائه لهم في وجدانه، تداهمه كألف عقرب تتصارع داخل
زجاجة مغلقة؟!!

انفض اجتماع آدمو باليانكي، فتوجه إلى أتباعه وحواريه.. ضغط
على مشاعره الذاتية. تغلب على ألمه وأحزانه، وخطب فيهم عن
حالههم ومآلهم، حتى سالت من عيونهم دموع الدّم، تبلل أرض
المعسكر المخفي بعناية في قلب الجبال والأحراش.

ومضى ينظم صفوف جيشه، معلنا حربه الضارية على الجنكويز..

ومع اشتداد المعارك، والهزائم المتوالية لجيش أبولكيلك انتشر الفرع، في أوساط العالمين ببواطن الأمور، من صفوة جمهورية المملكة الجنكويزية العظمى، بينما كانت العامة، تمضي في حياتها بإيقاعها ذاته، لا تعرف شيئاً عما يجري في الحدود البعيدة!

فأجهزة إعلام أبولكيلك، عتمّت على غارات الجنجويد وهزائم جيش أبولكيلك، وأكثر من بث تلك الأغنيات العنصرية البغيضة، المعبأة بمزاعم الشجاعة، التي تكرر فيها (شرابنا موية نار.. لحم الأسود مزتنا.. فرش البيت حرير.. ترقد عليه "فرختنا") ولم تنس كذلك بث أغنيات (الجبجبه؟!): التي تحرض على القتل الجماعي والأغتصاب وحرق القرى، حيث غارات الجنكويز لا تبق ولا تذر!

كان الجميع يتساءلون كيف لآدمو، الذي لطالما شدا، بثوابت أبولكيلك العجيبة، وتغنى بأمجاده، كآخر خلفاء النبي العرّاف ذو البدلة البيحية، عالم القانون واللغات، و"خابور" فتاوى النكاح الشرعي، وحيض النساء النفساوات.. كيف لآدمو هذا، أن يشق عصا الطاعة على سيده المهيب الركن أبولكيلك؛ ويعلن الثورة على سعادته، بكل هذا الجنون؟!

وبالطبع سقط هذا السؤال، في قصف الأنتونوف والهيليكوبترات والمدفعية الثقيلة، على الفلاحين والبسطاء، الذين كانوا ينظرون لآدمو (المنقذ، المخلص الذي سيملاً أرضهم عدلاً، بعدما ملئت جوراً) بعيون ملؤها الأسى والالتياح!

قال عباس ود الخزين:

"لا بد من القضاء على قطاع الطرق، وزعيمهم آدمو المارق المرتد"

"ولكن، هؤلاء ليسوا قطاع طرق!"

كان ود الخزيين لحظتها يؤكد على صدق النزوع النفسي لأبولكيلك؛
و شهوته المريضة في القتل؛ وعشقه الدّم والاستباحة..

ففي اليوم الذي سبق اليوم، الذي استولى فيه أبولكيلك على
السلطة، في جمهورية المملكة الجنكوزية. كان قد أفتتح انقلابه على
الأمرء الطائفيين، بقتل عشرة من الفلاحين و ثلاثة غنمايات وحمارين
ليتأكد من كفاءة بنديقيته!

فربت كبير العرّافين على كتفه بود، مستحسنا فعلته..

ومن بين كل المقربين منه، كانت علاقة أبو لكيلك بآدمو مميزة
دوننا عن كل علاقاته بالعرّافين الذين يملأون قصره) على الرغم من
إحساسه الدائم، بأن التفاهم مع آدمو، من الأمور التي تصعب
عليه، إلا أنه وجد نفسه منجذبا إليه على الدوام!

ربما لأن آدمو لم يكن يكثرث للتفسيرات العقلانية لسلوك أبولكيلك..
هذه التفسيرات التي، لو طرحها لوجد أبولكيلك، حرجاً كبيراً في تبرير
وجوده واستمراريته!

أكثر ما كان يزعج أبولكيلك، هو خوفه الدائم من شيء غامض لا
يدري كنهه بالضبط!..

هذا الخوف الذي يطارده منذ الطفولة الباكرة، جعله لا يستطيع
احتمال العلاقات المستقرة بالآخرين، ووقف خلف تعذيبه في الصّغر،
للزواحف والعصافير، حتى أنه ضرب والدته (بحديدة في عضم
الشیطان، لأجل قنقر عيش!) وهكذا ظل يتسلّي (عندما بلغ مرحلة
الشباب) بقتل الكلاب والفئران والقطط!

سبب أبولكيلك بسلوكه العدواني مع أقرانه لأسرته توترا وقلقا
عظيمين! وازعاجا لا حد له!

كان أبولكيلك على الرُغم من الخوف العظيم، الذي يسكنه يشعر بأنه عظيم ونبيل، ولا أحد يدري كيف تكوّن في دخيلته مثل هذا الشعور الزائف!

ظلت علاقة أبولكيلك بكل من حوله عاصفة، لا تفتأ بين آن وآخر؛ تقتلع أمامها كل ما هو جميل يربط بينه والآخرين!

أخضع أبولكيلك كل من حوله (الوحيد الذي لم يتمكن من إخضاعه، كان آدمو نفسه) وكثيرا ما كان يشعر، أن علاقته بآدمو أشبه باختبار قوة.. كان الهتاف باسم أبولكيلك، والتصفيق له من أحب الأغنيات التي يشتهي سماعها في كل لحظة.

لا يذكر أبو لكيلك في حياته العامرة بالمعارك، أنه أحب فتاة قط. كل الفتيات اللاتي ربطته بهن علاقة عابرة، أسقطهن من حياته بمجرد انتهاء رغبته في الاستمرار. جميعهن كنّ جميلات، صغيرات، خاضعات، يتباهى بهنّ أمام أصدقائه، بفخر واعرّاز.

ولطالما حلم بنوع من الحب الأسطوري، كذاك الذي جمع بين العشاق في ألف ليلة وليلة! ولا زال ينتظر مثل هذا الحب الكبير! على الرُغم من أنه يملأ وقت فراغه بالزواج من الأرامل (زوجات قادة جيشه، الذين أسقط طائراتهم في أحراش البلاد الأسيرة!).

الغريب أن أبو لكيلك ليس هو رئيس البلاد الفعلي فهو(مجرد) القائم بأعمال القصر، لكنّه من هذا الموقع أصبح عمليا الرّجل الأول في البلاد الأسيرة، فكل الأموال والأجهزة الحساسة، مفاتيحها في يده! ويبدو أنه عندما تأمر مع العرّافين ضد جداد، كان ذلك لخشيتهم أن يمضي جداد في الاتجاه ذاته، الذي سبقه إليه آدمو.

العلاقة بين أبو لكيلك وكبير العرّافين، ظلّت غامضة حتى لحظة دخول اليانكي، في مؤخرة طلائع مليشيات آدمو، فكبير العرّافين شخص

من ذلك النوع الذي تنسج حوله الحكايات، التي يصعب تصديقها،
فيإلى جانب أنه كائن فطر على الإختلال الجنسي (كما يطيب لوّد
الخزّين التعبير)، فقد كان جينياً أيضاً مختل عقلياً!

كان مولعا بالابتسامات الشبقة، التي يمنحها لأتباعه وحواريه
بسخاء..

فكبير العرّافين ظل طوال عمره، في حالة حب دائم، كعاشق ولهان
ومغرم بالذكور، من كل شكل ولون!

لكنه أيضا كان عاشقا لتلك الترانيم مجهولة المصدر والغامضة، التي
يسمعاها آخرالليل فتملؤه حبوراً، وتجعله يسير آلاف الفراسخ، في طريق
لم يمض فيه أحد من قبل.

يتبع تلك الهواتف المضيئة (كما يزعم) التي تقوده من ظلمات الى
إضاءة خافتة، فشعور بالخدر اللذيذ.. حيث يشعر بالتححرر الكامل..
كان يوهمه بأنه حصل على الحرّية، بعد أن دفع ثمنها من عزلته
لعشرات السنوات!

على الرّغم من النجاح الباهر، الذي حققته ثورة آدمو المسلحة،
إلا أن أبو لكيلك استطاع تطويقها فيما بعد بطريقة ما (بتنفيذ
مؤامرة داخلية ضد آدمو، إذ انقلب عليه بعض قادة ثورته، وهموا
بقتله فوجد نفسه مضطراً للهرب) أصبح آدمو بين مطرقة الثورة،
التي صنعها وسندان أبولكيلك الجنكويزي، فلم يعد يثق بأحد أبداً،
إلى أن أنتقل إلى الحياة الآخرة بطريقة غامضة!

قالت الثّاية زوجة أبو لكيلك لجارتها محاسن زوجة وزير الدفاع
خلف الله الجنجويدي:

“أبو لكيلك مسكين وغلّبان، ما قادر يتفكك من سيطرة الزول ده
عليهو.. يقولو شمال يمشى شمال يقولو يمن يمشى يمن؟!!”

سالت محاسن بتردد:

“دحين يعني ما عندو شخصية؟!”

فرمقتها التاية بنظرّة غاضبة، جعلتها تتراجع وتضيف:

“بري يا أختي راجلك منو الزيو.. هيبة وسلطان، لكن الناس في الرسول انكلمت!” وعندما ابتسمت التاية، هدأت اضطرابات محاسن وانفعالاتها التي كادت تشرخ الجدار! ووجدتها فرصة مناسبة، لتسر للتايه:

“كل ما يشاع عن إنقسام العرّافين، و مناوأة أحد القسمين أبولكيلك، محض اختراع لذرّ الرّماد في العيون، فكل ما حدّث ويحدّث، هو من بنات أفكار كبير العرّافين، لغرض لا يعلمه إلا هو بسرّه الباتع وأبو لكيلك شخصيا!”

فابتسمت التاية في رضا، وهمست محاسن في سرها:

“سجّم خشم أمو!”

وقتها كانت حاضرة جمهورية المملكة الجنكويزية، قد أفاقت من بوح غفوتها الغامضة، على تأوهات أبولكيلك الجنكويزي التي اهتز لها القصر المتآكل، وفي الوّقت نفسه، كان آدمو لا يزال يستعيد في خاطره، ذكريات الصّبا والطفولة!

أفاق أبو لكيلك من الكابوس، الذي رأى فيه نفسه مشنوقاً، ينظر إلى رأسه وهو يتدلى تحيط به أنشودة طرّفها ثابت في السقف! فتأوه تلك الآهات العميقة التي سمعها كل من في القصر من حاشية وأتباع جنكويز! من أعماق أعماق بوتقة جمهورية المملكة، تلفت أبولكيلك في فراغ الغرفة ذاتها! التي خرجت منها أخطر القرارات، لأكثر من نصف قرن من الزمان.

تلك القرارات التي قذفت بشعبه إلى حالة من اليأس والبؤس الفريد، والقلق والتوتر العظيمين، وغيّرت من مصيره باتجاه آخر أكثر غموضاً، من آهاته الملتاعه.

عندما تولى أبولكيلك زمام الأمور في جمهورية المملكة، كان مدفوعاً من العرّافين، الذين أوهموه بأنه رجل ذو شأن عظيم فقدّر ثم قدّر، ورأى أن من الحكمة أن يفعل بشعبه، كل ما يشير به العرّافين.

وعندما حدّثه عبد الجوّاد ود الباهي، نقلا عن أحد العارفين بأسرار العرّافين، الذين أحكموا الحصار حول أبي لكيلك، لم يصدّق عبد الجوّاد بل وأنتهره، فخرج الأخير غاضباً، ومضى أبولكيلك، إلى كبير العرّافين يُسرّب إليه شكوك ود الباهي، فلم تمض سوى أيام قليلة، حتى مات ود الباهي أو (قتل) وتكرّرت حالات الموت في ظروف غامضة! لكل من تشكّك في أمر عرّافين أبي لكيلك!

وأصبحت منذها مقولات العرّافين، من ثوابت أبولكيلك التي يصرّ عليها في خطاباتة الجماهيرية، أكثر من العرّافين أنفسهم، حتى شاع في جمهورية المملكة القول في سخرية: (التركي ولا المتورّك) كناية عن المأزق الوجودي لأبي لكيلك، في تبني أمور غريبة! نيابة عن أصحاب هذه الأمور!

ظهيرة ذلك اليوم الذي أفاق فيه أبولكيلك، مُحاصراً بكوايبس اليقظة، التي اخترقت أحلام جمهورية المملكة، استعاد في ذاكرته عمليات السحق والتنكيل، التي قام بها ضد الجمعيات السرية (التي كانت علنية قبل توليه الحكم، انقلاباً عليها) حتى لم يبق لها صدي. كانت تقارير مخبريه مؤخراً، تؤكد أن زعماء الجمعيات السرية الهاربون، شمتانين فيه، وليس لديهم استعداداً في إقالة عثرته، وتطبيب خاطره في محنته الكبرى.

ظهيرة ذلك اليوم هتف أبولكيلك (بعد اطلاعه على آخر التقارير) بحاشيته التي كانت تتساءل، باحساس ملؤه الزُّعر والخوف والترقب! سميَّ أبولكيلك وصليَّ، وأستهل بثوابته المعتادة، التي طالما حوّلت حنين أهل الجمهورية الملكية إلى أسي، وذكريّات أسلافهم بكل الحكايا القديمة إلى حربٍ ضارية، انتزعها أبولكيلك من قلب التاريخ، ليزرعها في حاضر حاضرة البلاد الكبيرة.

فاستحالت تلك الثوابت إلى كوابيس، أقلقت مضاجع عمال "القصب- الكتكو والفحامة" والفلاحين البسطاء في أقاصي البلاد و دواينها، وأولئك الذين يعيشون على جنّي الثمار، و مطاردة الأرناب بـ "السفاريك!".

كان كل من في القصر، يتصبب عرّقا عندما ختمَّ أبولكيلك خطابه: "من أراد العودة فليغتسل، بماء البحر ومن أراد السلطة، فليحمل السلاح لقتالنا"

لحظتئذ، همس عباس السنجك لود القرّاي: "أبولكيلك ما ناوي يجيها البر!! أنه يدعو معارضيه لحمل السلاح!?" فهز الأخير رأسه وصمت مطرقا بعيداً عن وجه آدمو، الذي غصّنته الأوجاع التي صنّعتها أبولكيلك وجنجويده في قومه! كان آدمو إثر هذا الخطاب، قد أضمرّ في نفسه شيئا، لم تكشف عنه سوى وقائع الأحداث فيما بعد!

إذ هرب في سرّيه تامة، وبعد هروبه انتشرت البيانات والمنشورات السوداء، التي تحكي عن فساد عقل أبولكيلك وجنون وفساد حاشيته وأتباعه!

ورغم أن هذه المنشورات لم تحمل توقيعاً محدداً، إلا أن أصابع

الاتهام في أجهزة أبولكيلك الاستخبارية أشارت كلها إلى آدمو، وتناقلت حاضرة البلاد الكبيرة، في سرية تامة، أحد البيانات التي لم يكتب عليها ولا حرف واحد، فإماطة اللثام عن علاقة كبير العرفان الحميمه باليانكي، وربائبهم من جوار البلاد الكبيرة الطامعين، لم تكن بالأمر الذي يحتاج إلى بيان!

لحظتها كان مفكري الدولة الجنكوية ومتقفوها ومبدعوها، قد أكملوا كتابة ملحمتهم الغامضة، التي لم تحمل سوى عبارة واحدة، على مدى عشرة ألف صفحة هي:

(المصيرك تنجرح بالسلاح..) ولم يتبرع أي من النقاد المزعومين، لشرح المحتوى المعرفي و الدلالي للفظ (السلاح) التي وردت في الملحمة العظيمة لأهل الحاضرة، رغم تساؤلاتهم المريرة.

ولأن أبولكيلك لا يهجه سؤال، اكتفي باستحسان الملحمة، مداريا جهله بعيون الشعر الجنجويدي، لكنه لم يتوانى في أن يعرض بعصاه ويرقص. ما دفع أحد الخبثاء في الصفوف الأمامية أن يهمس:

”جَبَّ.. جَبَّ.. جَبَّ..“

وقال آخر:

”حتودينا في ستين داهية“

وتصدى جبر الدار ود تور شين للمسألة فلاك لسانه وهمهم ودمدم، ولم يفهم أحد الحاضرين شيء سوى كلمة:

(جنكويز!)

لحظتها كانت قبيلة الجنكويز (التي ينتمي إليها أبولكيلك) قد غادرت مضاربها إلى مكان غير معلوم، وأرسلت زعمائها إلى قصر أبولكيلك ذي القبة الحمراء، عند مقرن النيلين في قلب الحاضرة

الجنكوزية.

كانوا يناقشون خططهم لحماية القبيلة، وحماية أبولكيلك من أيّ هجوم محتمل، ويخططون لاستكمال خطّط العرّافين بحرق مزيد من القرى و"الحللات والفرقان" واغتصاب أكبر عدد من الفتيات دون سنّ العشرين وقتل كل الرّجال والأطفال والشيوخ دون استثناء.. وعندما جلس أبولكيلك إليهم أكد علي خُطّطهم..

كان أبولكيلك منذ طفولته الباكرة، كائناً متوحداً يعشق العزلة، ويجنح إلى العنف و لديه نزوع فطري قوي للانقياد، وذاكرة ذات قدرة فدّه على حفظ تعليمات العرّافين وتنفيذها (في صالوناته الخاصة)..

إثر نجاح آدمو، في تصعيد وقائع السّحل الذي تمّ لقومه، وتحريك هذه الوقائع المأساوية للضمير العالمي، أفاد أبولكيلك أنه فعل ما فعل ليس استجابة فقط لأوامر العرّافين، بل لحبه للبيئة، هذا الحب هو ما دفعه لأعمال الإبادة الجماعية، واستجابة لأجهزة إعلامه، بأن هؤلاء السود البدائيون، يهددون الحياة البرية بالصيد وينهكّون الأرض بزراعة التّمبّاك والبنقّو!

كما أن الاغتصاب من وسائل تحسّين النّوع الفعالة، لدمجهم في بوتقة جمهورية المملكة الجنكوزية العظمى.

ظلّ الهدف الحقيقي لـ أبي لكيلك غامضاً! حتى عن أفكاره الشخصية المضمرة!

وفي لحظات تجلّيه الخاص، عندما تتسرّب إليه حكايات الاغتصاب والقتل الجماعي وحرق القرى. يتساءل في سريرته (لماذا فعل ما فعل، بإطلاق جنكوزيه لإشاعة كل هذا البؤس الذي يهدّد الحاضرة ذاتها الآن!).

كان أبولكيلك ينتج أفكاره بطريقة عجيبة.. إذ ينقث ذلك النّوع من الدّخان، الذي يتصاعد في قاع دماغه، متموجاً في دوائر حلزونية.

ومن قلب هذه الدوائر، تتشكل أفكاره التي سرعان ما يتلقفها الجنجويد، فيزرعون الرعب في تلك القرى النائية البعيدة، في نفوس الفلاحين والصيادين البسطاء، في أقصى التاريخ المنسي للبلاد الكبيرة الأسيرة!

قال ود عطاً الله الذي حارب جدّه الكبير مع الإمام المهدي، ومات من الجوع والعطش وتعذيب الأنصار في سجون الخليفة: “أبو لكيك يعاني من ضغوط عظيمة من اليانكي، الذين هدّدوه بالويل والثبور وعظائم الأمور، وجعلوه يرتجف من الخوف والفرع!.. ويهتف بالتاية:

“دثرينى.. زمينى!”.

حاولت إذاعة أبو لكيك أن تلتف من الشقاء والضجر؛ الذي اعتري حياة أبو لكيك فأعلنت عن بيان هام ترقبوه في اهتمام، وعندما استمعوا إليه شملهم دُعر وخوف مقيمين! كان اليانكي يتدفقون من كل فج. فكر محمد أحمد ود السرة:

“لابد أن أبو لكيك الآن في محنة عظيمة!”

ولحظة تلى وزير دفاع أبولكيك خلف الله الجنكويزي (الذي ينحدر والده من صلب أحد الأتراك في جيش الدفتدار) بيان التصدي المزعوم لليانكي. كان أبو لكيك شخصياً؛ لحظتها يجتمع بسفير اليانكي، مؤكداً على فروض الولاء والطاعة (للمرة الألف منذ استيلائه على السلطة من قبضة الأمراء الجنكويز الذين سبقوه إلى حكم البلاد الكبيرة الأسيرة منذ استقلالها الوهمي!). كان ود السرة مثل أبولكيك لا يعلم أن الأخير بتنفيذه لما يشير به كبير العرافين، إنما يُنفذ حُطة اليانكي المزدوجة لاحتلال البلاد الكبيرة، مرّة أُخرى!

وعندما احتج أبولكيلك في ذلك الاجتماع بخنوع، قمعه سفير
اليانكي بقسوة:

“نحن لم نقل لك أرتكبّ الفظائع!”

كان أبو لكيلك قد أسقط في يده؛ وتلّفت حوله في غرفة الاجتماع
تسيطر عليه الرغبة في الهروب الآن قبل أيّ وقت آخر!

III

بعد مضي كل هذه السنوات، ها أنا أجلس الآن وحدي، في هذه البلاد البعيدة الغريبة، أرمي ببصري إلى الورااء البعيد، فأرى كل الخيارات سيئة، وأفضل الأسوأ هو مغادرة البلاد الكبيرة الأسيرة، فهاجرت!

والآن أسائل نفسي كالعادة: (متى تعود إلى البلاد الأسيرة يا علي؟!)
فيديو سؤالي في فراغ المكان، دون أن يعود الصدى راجعاً، "فأتيقن"
بالصبر على الغربة!

ينسرب خاطري من آن لآخر.. غالباً، ليستعيد حلة جلالي ود عربي بناسها وحياتها، فتقفز الميرم كلتوم، التي وجدتتها بهذه البلاد، فحفزت في داخلي كل ذلك العالم المنسي، للمدينة الريفية وجلالي ود عربي!

IV

كنت واقفاً أمعن فيهما النظر، إلى أن تلاشيا في الشارع الخالي إلا منهما. فرددت بصري، وأنا أشعر بميدان التحرير يمتلئ فجأة بالناس، ويهيئ الضجيج على شارع القصر العيني! والزحام يُعيق حركة المرور، في الشارع المفضي إلى طلعت حرب! كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها؛ في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي، بعد أن دهستني عربة النقل الكبيرة، وساوتني مع الأسفلت. وحتى الآن لا أدري، هل ما حدث أمامي حقيقي، أم هو وهم تخيلته!.. هل الميرم كلتوم، التي عرفتها في طفولتي، هي ذاتها الشيخة كلتوم التي اختفت أمام عيني قبل قليل؟ هل هي ذاتها.. التي غيرت حياتي؟ عندما دخلتها فجأة في ذلك المساء، عند مدخل ضريح السيدة زينب؟!..

هل هي ذاتها هذه التي غيرت حياتي مرة أخرى، لحظة رأت عبد الرحمن (العوير) ود التوم فاقتربت منه و مدت أناملها تخاصر أصابعه، ومضيا معاً ليتلاشيا في شارع القصر العيني! كانت الشيخة كلتوم منذ عرفتها، تكتفي عن سؤالي بالنظر إلى بؤبؤ عيني، تعبته إلى جوفي فتدرك حقائق وتلوح لي بها! فكنت أرى نفسي في "رفاقها" التي تعبر بي تلك المسافة الكامنة، في عجز اللغة وقصورها، عن ترجمة نفسي بهذه الدقة المتناهية، التي تلوح في إيماءات الشيخة وإشاراتها، التي تُفكك ما استغلق داخلي، وتبوح برموز باطني، المفعم بالتلويحات، فأرى نفسي كالشمس: ساطعة.. و حياتي تنساب فيها من الميلاد إلى المنتهى، عند شجرة اللالوب التي خيمت عندها الميرم، تناجى ود التوم فيما تعابث

غرابها الأشهب، وأنا اقترب منهما حاملاً قلبي على كفي..
تنساب حياتي هكذا بإيجاز ورحابة، محاطة بمكاشفات الوصول،
المنزّهة عن مزلق اللغة، و سباسبها ووهادها ومضايقها الوعرة!
إذن هكذا.. كان ما بيننا من أمر من المبتدأ إلى المنتهى!
أول مرّة جلست فيها إليها غابت عني كأنها ترتحل في عالم لا نهائي. لا
يمت إلى هذه الدّار بصلة.. كانت هائمة. مغتربة في الزّمن والمكان. لا
شيء يبين منها في ثوبها الصّوف المطرّز بالريش وألياف الشجر.
لا أدري إن كان هذا الثوب، يخفي داخله الشيخة كلثوم أم يخفي
شخصاً آخر!

كنت قد التقيت الشيخة قبل أيام عند ضريح السيّدة زينب،
واستقبلتني قبل قليل في دارها، وبعد لا تزال التساؤلات تتفاعل
داخلي! ترى هل هي الميرم ذاتها: تلك الدّرويشة، التي كنا نجلس
إليها في الطفولة، بعد أن نعبث مع الغراب الأشهب في شجرتها
الللوب، والذي كانت ترعاه باهتمام غريب.

كنا نسألها ما يعنّ لنا من أسئلة، فتبتسم وتحكي لنا عن طي
المكان والزّمان، و"المسيد" و"حيران" (الشيخ كوگاب العنقره).

هل هي الميرم كلثوم ذاتها، أم يُخفي هذا الثوب
الذي أجلس إليه الآن شخصاً آخر، لم يسبق لي معرفته؟!
كنت مرتبكاً، وخائفاً.. وحائراً، ربما.. وربما مذهولاً ومسحوراً! وذاكرتي
تحاول أن تستعيد، تلك الحكّيات المتناقضة عنها، في تلك الطفولة البعيدة.
"حلّت الميرم كلثوم على حيناً فجأة"

(قالت سارّة)، واتخذت من تقاطع الشوارع، في قلب الحي مكاناً
لكوخ صغير، استحال بمرور الوقت إلى بيت كبير غامض بسوره
الطيني، الذي تنبعث منه رائحة الرّعفران.

لا ندري متى شيدته.. فجأة رأينا الكوخ الناهض في قلب ميدان التقاطع!.. ولم تمض فترة وجيزة حتى اختفى الكوخ بين سلسلة من الغرف المسورة بجدران الزعفران! كانت الميرم ذات جمال ملائكي، وعينين اجتماعيتين، ووداعة وسمت شبابها الذي تجاوز سن العشرين بقليل (وقتها) وقد أضفى عليها ثوبها المزيج من الليف والصوف والرّيش؛ وقاراً، انسحب على بشرتها القمحية المشربة بغبار السفر المستمر، الذي لم يستطع إخفاء يناعتها، كزهرة بريّة مرّت عليها عاصفة دون أن تذروها أو تكسرهما.. كل ذلك أضفى عليها غموضاً وسحراً غريبين! هذا الغموض والسحر هو ما أثار الأسئلة، التي حملتها إليها لجنة الحي، فردّت عليها بهدوء ولطف:

“أنا الميرم كلتوم بنت دورشيت السلطان، ولكن كل العاشقات لم يكنّ سواي يوماً!”

استهجن أعضاء لجنة الحي اجابتها لكنهم عملوا (مع ذلك) على أن يتقبّل الحي وجودها.

تذمر الناس في البدء.. ثم خفت أصواتهم شيئاً فشيئاً، ثم تقبلوا الأمر على مضض، فصّار وجود الميرم أمراً واقعاً في الحي!

خاصة أن أحد أعضاء اللجنة من (أهل الحل والعقد في المدينة الريفية) قد عرض عليها الزواج (على نحو غير معلن) فرفضت وعرض عليها آخر أن يفرد لها غرفة في داره (سراً) فرفضت ذلك أيضاً. وأخيراً تعاطف معها كل أعضاء اللجنة، بدفع من الرجلين اللذين قدما عروضهما السرية للزواج والمساكنة (هذه العروض التي لم تخرج إلى العلن إلا بعد اختفاء الميرم) على نحو غامض! تعاطف أعضاء اللجنة معها وعملوا على دعمها، فأدخلوا بعض التحسينات على كوخها، واشتروا لها ثياباً لم تلبسها مطلقاً، وأتاحوا لها حمامات بيوتهم.

وهكذا أصبحت الميرم كلثوم، جزءاً من النسيج الاجتماعي للحى، ومعلماً بارزاً فيه بشجرتها "الألوب" وغبابها الأشهب، الذي لا يفارق الشجرة أبداً!

كانت شجرة "الألوب" هذه قبل أن تنصب "الميرم" كوخها تحتها: يابسة وجافة منذ وقت طويل، ومجىء الميرم اخضرت الشجرة وجاء هذا الغراب بلونه الأشهب، فاعتبر بعض المتبحرين في العلم، أن تلك كرامة ولية صالحة! صارت الميرم إذن جزء من الذاكرة العامة للحى، الذي بدت كأنها ولدت فيه! أخذت الميرم "تخط الودع" للصبيان والصبايا، الذين يزورون كوخها. وتبيع "النبق" و"القنقليس" و"الدوم" للأطفال الذين يتجمعون في العصارى حول كوخها، فتحكي لهم كل الحكايا التي حكتها لهم من قبل، مراراً وتكراراً دون أن تكل أو تمّل! فجأة بدأت الحكايات حول الميرم تنطلق، لا أدري: هل تزامن انطلاق هذه الحكايات بعد حلولها المفاجيء بقليل، أو بعد ذلك بوقت ليس بالقصير، إذ روج الرجال.. خاصة أولئك الذين في لجنة الحى، أن الميرم نزحت من أرض بلدها، بعد أن ضربها الجفاف والتصحر، وبسبب الحرب الأهلية أيضاً.. فعندما مات أهلها بسوء التغذية لم تجد بداً من مغادرة ديارها الخطرة. فضربت في الأرض حتى أستقر بها المقام في هذا الحى.

"لماذا لم تسكن في جلاي ود عرّي، وفضّلت عليها المدينة الريفية المتاخمة؟!"

الإجابة على هذا السؤال تحل عدداً كبيراً من الألغاز.. لكن للأسف لن يستطيع أحد سوى الميرم الإجابة على ذلك! إلى آخر الحكايات من هذا القبيل، والتي تم اعتمادها رسمياً، كحكايا صادرة عن السلطة العليا للحى!

لكن كانت هناك حكايات أخرى فاعلة ومؤثرة؛ رغم أنها لا تعبر عن وجهة النظر الرسمية للحَي، هي حكايات النسوة اللاتي أخذن يؤكدن أن الميرم حلت بالحي كلعنة! فهي هاربة من القتل؛ بعد أن أحبت أحد حيران الشيخ كوگاب العنقرّة، في بلدتها التي في نواحي “دار الريح”، وقرر أخوتها ثأراً لشرفهم قتلها (لكنها هربت) بعد أن قاموا بقتل “الحوَار!” وحكّت نساء أخريات، أن “الميرم” ليست من نواحي دار الريح القريبة، بل من الغرب الأقصى في دارفور على تخوم الصحراء الكبرى.. حيث النساء متحررات، يمكنهن السفر إلى أي مكان وفي أي وقت دون “محرّم” وأنها جاءت إلى هنا لتخطف أحد “أولاد البحر” من زوجته فقد رأته في إحدى رحلات عمله، كسائق عربة نقل بضائع..

فأحبه وأحبها، وبعد سفره، قرّرت اللّحاق به وبحثت عنه طويلاً، إلى أن حلت بهذا الحي، لاعتقادها أنه يسكن فيه، وأن بصرها سيقع عليه لا محالة. وهكذا نهضت قصص النسوة في الحي، عن الميرم على أساس أنها، تبحث عن رجل ما، فأخضعن أزواجهن وأولادهن لتفتيش يومي ومراقبة صارمة. ولذلك عندما أقترّب الشاب الغض، والغامض المنكفئ على نفسه والمتوحد: عبد الرّحمن ود التوم من حياة (الميرم كلثوم)، وأصبح لا يفارق مجلسها، مع الصّبية الذين يصغرونه كثيراً. ثارت حفيظة الصّبايا، وشاعت شائعة بين النسوة في الحي: أن الميرم وود التوم قد وقعا في المحذور!

ثم بدأت النسوة يحاصرن الميرم بأطفالهن، فيوعزن للأطفال، بأن يهشموا قيلولاتها، برمى شجرة “اللّالوب” والغراب بالحجارة، وألا يجلسوا إليها، ورّميها هي ذاتها بالحصى الصغيرة.

وكنت أراقب كل ذلك بصمت، وأنا مشدوداً إليها، لكنني لم أقوى على فعل شيء!

إلى أن أختفت الميرم فجأة كما ظهرت فجأة. وتعددت الحكايات
والروايات حول اختفائها المفاجئ!

لكن كل الروايات أجمعت بين متناقضاتها، أنها فجر اختفائها،
كانت تحمل "صرة" كبيرة، منسوجة من الريش الأشهب على ظهرها!
وظللت بعد ذلك لوقتٍ طويل، أتساءل عن مصيرها، إلى أن غادرت
البلاد الأسيرة والتقيتها فجأة في هذه البلاد، عند مدخل ضريح السيدة
زينب، الذي كنت أتردد عليه بانتظام، كل جمعة لأكثر من عامين
ونصف، وأخذت أتساءل: (هل هي الميرم كلتوم ذاتها، أم شبهت لي
فاستمرأت هي الأمر؟!)..

وكأنها أدركت تساؤلي، فخرج من الثوب الذي كنت أجلس
إليه صوت (الإمام عبد القادر الجيلاني، هكذا خلته) رقيقاً مفعماً
بعذوبة الموسيقى؛ وهو ينشد في عشق الحبيب زفرات حرى!
ثم تنهدت بعمق وزفرت ثم التفتت الي تقول:

“عذراً يا علي”

“لا داعي للاعتذار يا شيختي”

لم أتوقف عن زيارة الضريح، إلا منذ تلك الأمسية التي التقيتها
فيها عند المدخل وأنا في طريقي إلى الخروج.

تعرفنا على بعضنا، واستعدنا بعض الذكريات البعيدة، وركبنا معا
الأتوبيس ذاته إلى “العتبة” حيث أفترقنا، على وعد أن أزورها في شقتها،
التي ما أن استقبلتني، فيها حتى دخلت في تلك الحالة من الغياب!
ومنذ ذلك اللقاء الأول عند الضريح؛ أصبحت الشبخة كلتوم
صديقتي الوحيدة، في هذه البلاد الغريبة.

كنا قد تقاربنا، كأننا أصدقاء منذ وقت بعيد، جمعتنا ذكريات

منصرمة، وبقايا أطياف حميمة.. ارتدنا سوح شاسعة، تعرّفنا خلالها على أدقّ حقائق أنفسنا.

تلك الحقائق التي لا تبين إلا في الارتحال والغوص بعيداً في منابع النور..

هكذا سرنا معاً بأقدام الصدق والتجرّد عن الاكوّان الظاهرة، وتلك الذكريّات المحزّنة: وهي تنسحب إلى داخل كوخها، لتنجو من الحصى التي يرميها عليها الصبيّة، أو تُسدُّ أذنيها حتى لا تسمع الضجيج في شجرة "اللألوب" عندما تضرب الحجارة فروعها الشوكية السميقة. طارت بي الشبخة كلثوم، بأجنحة المحبة مخترقة سماوات الأحوال والمقامات، ولم تحط رحالها أبداً والجيلاني لا يفتأ يهتف بها..

ما وطد علاقتي بالشيخة كلثوم هو تلك العفة، والرقة التي تسم حياتها.. وكلامها في الجد والهزل، وتلك الأحوال التي ترتادها، فتغيب عني، لكنني أراها في خاطري: أين تمضي فتدهشني تلك المشاهدات، وذاك الحضور الذي تغيب فيه.

كنت أدرك أن روحها وقلبها يتوقان إلى تلبية نداء الشوق والتنعم بالوصال، وما أن تنتفض وتسترد ذاتها الغائبة، متصبّبةً بالعرق والغبار والطين، وتجديني لا أزال قربها حتى تفتّر شفاتها عن إبتسامة هادئة وتقول:

"أوصيك يا علي بالسخاء والرضا.. الصبر والإشارة، الغربة ولبس الصوف.. السياحة والفقير..". فأضحك وأنا أرد عليها:

"يا شيختي، لا أملك سوى قلبي، وهذه الثياب ولا أظنني أرضي. فقد تركت بلدي لأمر، وأصبحت في شأن آخر، وأظنني صبور على هذا الابتلاء! ولا أظن ثمّة غربة أكثر من البعد عن الأهل والأوطان! ولا من هو أكثر غربة منّي في الدّات والأرض! وما عاد الصّوف يصلح

لحياة هذا الزمان؛ الذي زهد فينا.. ومع ذلك، ألا قاتل الله الفقير،
فقد طبع أكلي ومشرّبي وكسوتي بخشونته.. يا شيختي؛ الوصايا لمن
يستطيع إنفاذها؛ وإذا انطبق الحال والمقال لا ضلال عن الطريق”
فتضحك:

“يا علي القلب إذا صفا، تجلّت عليه سطعات الأنوار الشهوديّة،
حتى يصبح مجالاً للوسع النُّوراني، فكيف تقول أن الزّمان زهد فينا؟!..
والزّمان لا يزهد!”

فأبتسم وأشعر أن عروق قلبي تنتفض، وتمضي بعيداً تخترق
الطبقات والحجُب لتنزّع في اللانهاية فتستردني:
“يا له من قلب!”

سألتها عن الحوَّار الذي أحبت، وتلك الحكّايا، التي تناقلها الحي
عنها، فتنهدت:

“كان ذا وجه صبوح وإبتسامة، كلما ضاقت اتسع نورها! الوحيد
الذي لم يكن يخشاني، ويحضر الطعام إليّ، تحت شجرة اللألوب ولا
ينهض إلا بعد وقت طويل.

كان فتىً صالحاً مليئاً بالاشراق ولا يعرّف ذلك، لكن القوّة التي
شدّته إليّ، هي ذاتها القوّة التي شدّتي إليه، كطرّفين يلتقيان،
ليخلفان وراءهما عدوّة الماء السلسيل..

تلك كانت أول الحكايات وآخرها، فليس في حياتي حكاية سوّأها،
حكايّتي وعبد الرّحمن ود الثُّوم، وكل ما عدّها من حكايا باطل
ومحض أراجيفٍ أكاذيب من نسج خيال الحي، كنت آنس به ويأنس
بي تلويحاً وتلميحاً، فالصّبي (ود التوم) تغلّب على مراهقته بصلاحه
ونقاء قلبه، وذاك هو الإشراق..

لكن أهل حَيْك ضربوا علينا الحَصَّار، دوفا سبب... طردني سكان
حيك، بعد أن قتلوا غرَّابي الذي جاورته واعتنيت به، وطرّدوني بعد أن
أحرقوا شجرة "الألّوب"، وافترقنا ولم نلتق بعد ذلك أبداً.

لكنني كنت أعلم أنه سيموت كمداً كما ستموت أنت، وكما
سأمضي وإياه، إلى شجرة الألّوب في المنتهى، لنقيم في كوخنا تحتها،
نلهو مع غرّابنا الأشهب الوديع..

تركت الحي دون ضغينة حتى لا أقتل كاللوبة والغراب، ولم يتبق
لي سوى ذكريات الأيام الخوالي.

يا علي أنبل الذكريات تلك التي تخلو من مرارة و ضغينة”

في بوح الاحتضار.. في الخط الواهن الذي يفصل الحياة عن الموت..
 من أعلا برهات هذه اللحظة السرمدية، أطل وحدي على
 إحدى شرفات خاطري المتسع، لأراقب أحوال العالم المنسي لـ
 “جلابي ود عربي” وأتساءل:

هل هذا الذي أراه حقيقي أم محض وهم، يستغل ثقوب ذاكرتي..
 يعبئها، بعجينة خمير، يتشكّل منها تاريخ حلة جلابي ود عربي: ناسها..
 كلابها.. دروبها.. حبييتي ثريا.. التي لم أحب كما أحببتها

حمل إلى حسن أخبار ثريا.. قال باقتضاب:

“أصيبت بالسُّل وماتت من جرائه، قبل أن يهرُب خميس إلى مكان
 غير معلوم، فبقيت السَّرة والدتهما تلوك حسرتَّها، على فقد البنت
 والولد في آن واحد!”

لا زلت أرى معالم جلابي ود عربي، حيث ينهض الدُّكان الصَّغير لأبي
 في قلبها، مُحاصراً برائحتها المزيَّج من أبخرة الخمر البلدي ورائحة
 الجنس والعرق!

VI

منذ بدايات القرن التاسع عشر، ومجتمع جلالي ود عربي يشهد حركة انتماء تشد أطرافه المتباينة، التي جمعت أشتاتاً في بوتقة الكينونة الهلامية، التي أقيمت بالنزوح والغزو الأجنبي والاستعمار المحلي في الحاضرة.

ومع ذلك التباين كانت تبرز قوى، تجذب تلك الأطراف بعيداً عن بعضها دون أسباب موضوعية، الأمر الذي شغل بال المؤرخين طويلاً! للبحث عن جذور هذه الظاهرة في حلة (جلالي ود عربي)، التي تشكّلت على غرارها كل "حلالات وفرقان" وبلدات البلاد الكبيرة، بحواضرها ومدنها الرّيفية..

أثّرت جهود هؤلاء المؤرخين "المخطوطة السرية" التي توصلوا من خلالها لتفسير مبدي، لأول مرة حول هذه الظاهرة.

يقول محمد سعيد القدال على خلفية أشارت في كتابه الانتماء والاعتراب: (أن أدونيس كتب مقتبسا كانط: "أن العصفور الذي يضربّ الهواء بجناحيه لكي يطير، يتصور أنه لو لم يكن هناك هواء، لكان طيرانه أسهل! والحقيقة أنه لو لم يكن هناك هواء، لما استطاع أن يطير!)..

وعلق محمود أمين العالم، على هذا قائلاً: لا سبيل للتقدّم والقطيعة الجدلية الحقيقية، إلا من خلال الذاكرة التراثية. فلكي نظير أبعد من الهواء، ولكي نتجاوزه لا نستطيع ذلك إلا من خلال الهواء وبفضل الهواء وعلى الرغم من هذا الهواء؟!..

VII

قبل قليل (ثوان فحسب) أتصلت عبر هاتفي المحمول، بصديقي القديم حسن في الديار البعيدة. سألته عن "حلة جلالي ود عرّي" فأكد لي بطريقته الساخرة، أنها لم تعد كما تركتها. ففي السنوات "القادمات" التي لم تأت بعد شهدت جلالي ود عرّي، نهضة عمرانية مدهشة، إذ أعيد بناؤها على نحو عصري حديث ومنسجم، فترأّصت الأبراج والعمارات باتساق، ونهضت الجسور والطرق والكباري والمستشفيات والمدارس والجامعات، والساحات الخضراء والملوّنة بالورود والحدائق، التي كما في ألف ليلة وليلة وبدائع الزهور.

وصار كل الناس ناعمين، كحكايا ابن حزم في ألفتهم و إيلافهم.. فقد تحقق أخيراً في جلالي ود عرّي، ما حلمت به وما لم تحلم به يوماً! تمّ تشييده في السنوات القادمة، بعد أن زارها موظفي تنظيم القرى ومعالجة السكن الاضطرابي، وأجروا البحوث تلو البحوث بعيد زوال حكومة الجنكويز بقليل!

قطعت الاتصال بحسن دون تمهيد، لتستعيدني بعض الوقائع التي عشتها في جلالي ود عرّي، عندما كنت أمضي إليها بعد الدوام المدرسي، بصحبة حسن وخميس لأبقى في دُكان أبي حتى يتمكن من قضاء مشاويره.

وكالعادة لا يلبث حسن أن يملّ، فيمضي إلى منزله في مدينتنا الرّيفية، فأظل وحدي في الدُكان، أبيع للناس الى أن يحضُر أبي بعد أنقضاء النهار.

كنتُ مغرماً باكتشاف هذا العالم الغريب عني.. عالم جلالي

ود عرِّي النَّاهِض في العلاقات الثنائية المتوالدة والمتشابكة بصورة معقّدة.. لا تبين فيه الثنائية التي طبعته بوضوح لتداخلها في شبكة من العلاقات الوهمية، التي ظلّت غامضة بالنسبة لي، ومستغلقة على فهمي لوقتٍ طويل، قبل أن أبدأ في الاهتمام بحواشي المخطوطة السريّة، محاولاً استقراء ما خلفها من عالم مخفيّ بعناية دون متن.. فقط.. فقط حواسي توحى (كلما حللت رموزها) بمزيد من التفاصيل الغامضة! فعلاقة مثل علاقة السُرّة بكرتون، أو علاقته هو بها: كانت من العلاقات التي وقفتُ عندها حائراً لوقتٍ طويل. لم يستطع أحد أن يفكّ طلاسم هذه العلاقة، التي لا تخلو من حميميّة ووُد، أو يعرف كيف ومتى ولماذا نشأت مثل هذه العلاقة الملتبسّة! كما لم يجرؤ أحد على سؤالهما عن طبيعة هذه العلاقة غير المسماة!

لكن ما استقر في نفوس أهالي جلّاي ود عربي، أنها علاقة مساكنة فحسب، دون أيّ تأويلٍ جارح، وليس لأيّ أحد منهم علمٌ بالكيفية التي توصلوا بها لهذه القناعة، ومع ذلك كانوا يلمحون في جلساتهم الخاصة لأشياء أُخرى!

وكنت كثيراً ما أتساءل: كيف رضى خميس وثرثياً بتقبل مساكنة كرتون لهم؟ وهو الغريب عنهم؟!

وللمفارقة أن اللحظة الوحيدة التي أدرك فيها أهالي جلّاي ود عربي، حاجتهم الماسّة لمقابر بذات قدر حاجتهم لمعرفة الطقوس، التي تجرى للموتى، كانت هي تلك اللحظة التي ماتت فيها ثرثياً!

ولذلك عندما اكتشفوا موت حسان جدّاد وأدروب حرقاً، بسبب الحريق الذي لم يبق منهما سوى العظام المشويّة، التي التصقت عليها بقايا اللحم المتفسخ، ولم يستطع أيّ من المتحرّين، الذين ظلوا يتوافدون لأيام عديدة على حلّة جلّاي ود عرِّي، التوصل للأسباب الحقيقية التي أدت إلى الحريق، الذي شبّ في كل أطرافِ الحلّة وقلبها

في وقت واحد! ولم يترك شيئاً دون أن يلتهمه! لذلك عندما اكتشفوا موت جدّاد وأدروب حرقاً، كانت لديهم فكرة واضحة عن “إكرام الميتم!”

بسبب ذلك الحريق الذي حول حلة جلاي ود عرّبي بكاملها، إلى رّماد تذرّوه الرّياح!

قبل هذه اللحظة بوقتٍ طويل؛ كان الفشل مصير كل من حاول أن يفك طلاسم علاقة السُرّة بكرتون..

و“السُرّة بنت عرجون” وقتها كانت إمراة أربعينية، لا تخلو من ذلك النّوع من الجمال السائد، الذي لا يلفت الإلتباه، لا يعرّف لها أحد أهلاً أو أقارب، وكانت هي ذاتها تُصرّ دائماً على أنها “مقطوعة من شجرة”.. ولا أحد يعرّف لأبنيها أبٌ من بين رجال جلاي العديدين!

بدى للجميع منذ أول يوم حلّت به بينهم، كالهاربة من شئ يطاردها، فهي زائغة العينين على الدّوام، وتنتفض باستمرار، ومع ذلك اتسمت حياتها بطابع الكتمان والتحفّظ!

حتى أن حسان جدّاد لم يستطع أن يحصل منها على إجابة واضحة، على عرض الزواج الذي تقدم به إليها قبيل هجرته إلى الله (كما ذكر) زاعماً أن عرضه لّصونها وّصون ابنتها ورعاية ابنها.. (كما قال) فهما يحتاجان الأب في هذه السنّ الخطرة، وهي تحتاج لزوج “على سنة الله ورسوله، فالشيطان شاطر!”

يئس “جدّاد” بعد محاورات ومداورات، فصرّف النظر وهو يشعر بالهزيمة تضعع كيانه..

لم تكن للسُرّة أيّ صديقات في حلة جلاي ود عربي أو خارجها، بإستثناء تلك العلاقة اليتيمة التي ربطتها بسّت البنّات العشمائّة، التي رغم تجاوزها سن الأربعين، إلا أن أول ما يلفت النظر فيها،

هو بشرتها الصّافية، التي تشبه مزيجاً مصفىً، من لَوْن القمح والبُن
نصف المحترق!

كانت ذات جمال "جني" دفع حسان جداد للإنزّهال التّام، فأخذ
يُطاردها لأكثر من عامين، وعندما امتنعت عليه تقدّم من السّرة
صديقتها! كنتُ بعد نهاية كل يوم دراسي أركب دراجتي الفليس،
رادفاً حسن وخميس، نعرّج على حلة جلابي ود عربي، وبعد أن يتركني
والدي في الدّكان ويمضي.

يتجرّد خاطري منّي وينهض جوارّي، فأتكئ عليه وأتأمل أحوال
العالم المنسي لحلة جلابي ود عربي.. وحسن ينظر إلى صامتاً، دون أن
تنفرج شفّتيه عن كلمة واحدة.

كنتُ أشعر بهذا العالم غريباً، يحاصرني بظلاله محاولاً توليفي
كجرو صغير. وأذكّر وقتها فيما اذكّر: الحزن العميق في عيني السّرة
وهي تجاهد (دائماً) إخفاء جرحٍ غامض يتمظهر في هذا الحزن.

ربما لأنني فاجأتها مع والدي، في الغرفة الخلفية التي يقع مدخلها
من جهة الباب السّريّ للدّكان. كانت رجليها مرفوعتين لأعلى. أعلى
من أقصى شرفات خواطري! وكان أبي يربض عليها كأبي الهول، وكنت
مذهولاً لا أشعر بنفسي ولا أدري أين أقف.. في أيّ نقطة من المسافة
التي بدت شاسعة وقريبة في آن!

لكن ما أدركه تماماً أن ذلك المشهد أصبح السّر الصّغير لثلاثتنا!

في ذلك اليوم الذي أحترق فيه بيتُ أم التيمّان، التي كانت قد
أستيقظت في الفجر فاشعلت نار "الدّوكة" تمهيداً للبدء في صناعة
المريسة، وهي تمّني نفسها بأن تتمكّن اليوم من تطبيق وصفة مزّيد
الحلبي، التي أشار بها.

كانت تحادث نفسها، وكلّها أمل في أن تمكنها هذه الوصفة من

تحسين سمعتها في سوق "المرايس"، الأمر الذي سيجعل دربها سالكاً لسرقة زبائن السُرّة، الذين كانت تطلق عليهم "الزباين الهايلايف".
عندما أستيقظت أم التيمان، كانت الدّيقة لا تزال بعد تعرّف سيمفونية الفجر، تشاركها كلاب الحلة والضّفادع التي تنقُ في خيران جلاي، كجوقة استثنائية!.

فمن مفارقات هذه الحلة (في نظر سكان المدينة الريفية) أن كلابها هي التي تقوم بالإعلان عن الفجر!

فالدّيقة تصحو متأخرة بسبب تناولها مخلفات صناعة الخمر البلدي "المشك والبلح" وصحو الكلاب باكراً كثيراً ما يثير حفيظة الدّيقة، التي تتأخر في النوم، فتعبر عن احتجاجاتها بعد ذلك بالصياح، بعد أن تكون الشمس (عملياً) قد أشرقت!

هذا التفسير العلمي البارع، تبرّع به حسان جداد باعتباره المثقف الجهبوز في حلة جلاي ود عربي.. إذ كان هذا الرجل كثيراً ما يتحدث عن معرفته العميقة والواسعة بعلوم الأولين والآخرين، ويذكر أسماء لكتب "يقول عبده الحال على لسان حسن أنه بحث عن العناوين التي ذكرها له نقلاً عن جداد، كثيراً ولم يجد كتاباً واحداً يحمل إسماء من هذه الاسماء؟!"

أشعلت السُرّة النار، والسماء بعد لا تزال تنتثر على صفحاتها، حبيبات الأرز المضيئة الآخذة في التلاشي، مفسحةً لضوء الفجر المتسلل على استحياء.

لحظتها كان نباح الكلاب في الشوارع، يقطع ما تبقى من الصمت، كسكين صدئة تقطع قماش عتيق، وما أن حاولت الشمس أن تطل، حتى سمعت أم التيمان خطأً خارج دارها وهتاف:

"أم التيمان.. أم التيمان أنا عبد الرحمن ود التوم"

فركضت نحوه في غضب، تنفض فيه ما تبقى من نَعاسها المخمور،
حتى صحى نصف سُكانِ الحِلَّة على سماع شتائها المقدّعة وصراخها
المسعوّر.. ونشيج عبد الرّحمن العوير الذي كان يتلقى على ظهره
في انكفاء الضربات القاسية من “مفراكتها” الغليظة التي تستعملها
لتحرّيك “المريسة” في “برمة” الفخار الكبيرة.. ولم تتوقف عن ضرب
عبد الرّحمن الذي اضطر في النهاية أن يخر كجمل منحور!

عند هذا الحد تجمع أهل الحي بينه و بينها، وأخذ عبد الرّحمن
شيئا فشيئا يتمالك نفسه، فنظر إليها بغیظ مكتوم، ودون أن ينبس
ببنت شفة، رَفَع يديه إلى السماء ومضى.

كانت عادة التجوال في شوارع الحِلَّة واحدة من العادات المزعجة
لعبد الرّحمن العوير. فهو ما أن يبدأ الفجر في البزوغ، حتى يمضي
هاتفاً بأسماء أصحاب البيوت التي يمرُّ بها. هكذا اعتاد عليه النَّاس
وألفوه منذ ترك المدينة الريفية وحلَّ بينهم.

VIII

كنتُ بعد أن أسلمَ والدي الدُّكان، أعرج خفيةً منه الى دار أم التيمان. تدخلني غرفتها التي لم تسمح لأحد سواي بدخولها، وتخرجُ كالعادة "شنطتها" السوداء العتيقة من أحد أرفف دولاها حائلُ اللون. فتفرغ أحشاء الشنطة وتمد لي الرسائل القديمة (التي تحرّص عليها) لأقرأها لها:

"حبيبي تيمة.. .."

وعندما أنهى قراءة الرسالة، التي بالكاد تكشفُ تعابيرها المرتبكة، عن أحاسيس ومشاعر كاتبها، وأصل إلى توقيعه "سوكا". تمسحُ أم التيمان دمعةً يتيمةً، تنحدر من عينها اليسرى، فأقرأ لها رسالة أخرى، فتتحدر دمعةً أخرى من عينها اليمنى.

هكذا تنحدرُ الدَّمعات من عيون أم التيمان بالتناوب.

كل رسالة بدمعة، فأسألها عن (سوكا) كاتب هذه الرسائل، فتهزُّ رأسها وتمضي لتحضر لي كورة "الكانجي مورو أو العسلية" .. ثم بعد ذلك تطعمني شيئاً من بقايا "مناصيص ومريّن" لا شك عندي أن بعض زبائننا الموسرين خلفوا لها هذا الطعام.. ثم أشربُ مرةً أخرى ما تبقى من شرابي، وعلى عجل أمضي متخفياً خشيةً أن يلمحني أحد، فيخبر أبي الذي لن يتورّع عن إحالة حياتي إلى شقاء وضجر!

من الشخصيات المنسية التي كانت تسقط باستمرار عن الذاكرة الرسمية للحلة: شخصية أبكر وأدروب وريّاك. ورغم أن جميع الأهالي يتذكرون أنهم عندما سكنوا جلاي ود عربي واستقر بهم المقام فيها؛ وجدوا أدروب وأبكر وريّاك، جزء من المعالم الرئيسية لحلة جلاي ود

عربي، يتذكرون كل شيء وينسون هذه المعالم الثلاثة البارزة والمنسية في آن!

كل سكان الحلة لا أحد منهم يتذكر أنه سكن قبلهم أو سبقهم إلى السكن!.. ربما أن نسيانهم جاء من سكنهم على مبعدة من بيوت الحلة المتلاصقة، إذ يحيط ببيوت أبكر وريّك وأدروب الفضاء من كل جانب.

حلة جلاي ود عربي ليست كبقية الحلالات والفرقان، التي في أطراف البلدات والمدن. فهي حلة نهضت فجأة على مبعدة من النيل. إثر موجات النزوح الكبيرة، التي تسبب فيها الجفاف والتصحر، الذي ضرب أنحاء واسعة، من الأطرّاف الغربية للبلاد الكبيرة.

وعلى الرغم من أن الحلة أسمها جلاي ود عربي، إلا أن الأصول الأثنية لسكانها كانت أما أفريقية خالصة أو هجينة، ومع ذلك كان سُكانها يصرون على هذا الاسم: "جلاي ود عربي" .. ولم يحول هذا الإسم دون تقسيم جلاي ود عربي إلى حلالات صغيرة داخلها، مثل "فريق الشايقية"، "الجلابة المساليت"، "حلة العرب"، "حي الدينكا الجلابة"، "حلة الفور"، "فريق النوبة".

هذا المكان الذي نهضت فيه جلاي، كان أهالي المدينة الريفية، التي تعتبر حلة جلاي ود عربي واحدة من ضواحيها، يزرعون فيه الدرة الرفيعة والدخن كنشاط ثانوي بعد دوام عمله.

وما إن نهضت هذه الحلة، حتى لم يعد لديهم خيار سوى التوغل بعيداً عنها، لإنشاء حواشات جديدة من الأراضي البور، التي لم تمتد إليها أيدي سكان حلة جلاي، يزرعون فيها ما يعينهم على حياتهم القاسية.

فقد كانوا يمارسون الزراعة بعد دوام أعمالهم. خاصة أن الأراضي التي احتلها النازحين، وأقاموا فيها حلتهم، لم تكن مملوكة لأحد،

فهي مملوكة للدولة، منذ العهد الاستعماري الأول، مروراً بحكومات الاستعمار المحلي المتعاقبة، وصولاً لحكومة أبو لكليك الجنكويزي.

لذلك لم يكن ثمة جدوى من محاولة سكان المدينة الريفية، إجلاء أهالي جلابي ود عربي، فاكتفوا بوضع اليد على الأراضي البور. ومن ثم شرعوا يعملون عليها كحواشات زراعية بديلة لحواشاتهم، التي استولى عليها النازحون فجأة، وأقاموا عليها حلتهم “جلابي ود عربي”.. كانت الدهشة تهيمن عليهم، إذ ظلوا يتساءلون لوقت طويل، عن التوقيت الذي بدأت تنشأ فيه هذه الحلة بالضبط، دون أن يلحظها أحد!!

كما ظلوا يُعبرون عن مخاوفهم باستمرار، عن خطورة هذا الوضع، الذي لا يملكون شيئاً لتغييره!

العجيب في الأمر أن موظفي السكن العشوائى، الذين أرسلتهم المحلية، عندما جاءوا وسألوا عن قريب أو حفيد لهذا الـ “جلابي ود عربي” لم يستطع أحد أن يدلهم عليه، واتضح أن ذاكرة السكان لا تحتوي على هذا الاسم إطلاقاً ضمن قوائمها، التي تؤرخ بها لأشجار نسب أهالي الحلة، التي ينتهي بعضها عند الفضل بن العباس! على الرغم من أن عدداً من مؤرخين “جلابي” أكدوا أن الفضل بن العباس كان عاقراً! الأمر الذي استغله بعض الخبثاء، الذين أخذوا يتساءلون:

“إذن كيف ينسب إليه بعض أهالي جلابي أنفسهم؟ ولماذا لا ينسب أحداً منهم نفسه إلى أبي لهب مثلاً فهو أيضاً عم الرسول (ص)، أو بلال فهو على الأقل من الحبشة بالتالي قريبينا؟!”

وهذا السؤال الذي لم يتبرع أحد بالإجابة عنه، أزعج “لا” أحفاد الفضل بن العباس وحدهم، بل أزعج كثيرين من مثقفي الدولة الجنكويزية، فسارعوا لإقامة الندوات السجالية التي استمرت لسنوات تحت نفس الشعار:

“دليل الناس في معرفة نسب أحفاد الفضل بن العباس”

وهذا الشعار انبثقت عنه عدة شعارات جانبية، للتأكيد على أهمية الموضوع، مثل:

“الرقص والطرب في سيرة جلابي ود عرب” و“مسك الختام في معرفة حكام جلابي ود عربي من خليفة وأمير وإمام” إلى آخره من هذه الشعارات، التي شغلت بال الكثيرين في جلابي نفسها بعد أن رُوعت الآمنين خارجها وأدهشتهم أيما دهشة وأعطتهم الإحساس بأنهم أجنب في بلاد أجدادهم!

فجلابي كانت تتصور ذاتها على نحو مختلف تماماً، عندما حاصرها مثقفو الدولة الجنكوزية بهذه الندوات، وكنموا على أنفاس وعيها الجنيئي! ويبدو أن الموضوع كان جاداً أكثر مما قدر الجوار الإقليمي لجلابي، فقد استمرت هذه الندوات لسنين عدداً، ولم تتمكن بعد كل ذلك من دحض ذلك السؤال المريب الذي كان قد ألقى به أحد الحشاشين في جلابي، في واحدة من لحظات التجلي النادرة، بعد أن خدره “البنقو” ونقله إلى البرزخ، فأخذ ينظر من هذه المنطقة السامية إلى جلابي، التي بدت كنقطة صغيرة في كون البلاد الكبيرة الواسع.. رمى فوقها بهذا السؤال فتلاشت في فراغ هذا الكون.

ثم لم يعد الحشاش يرى جلابي، فقد اختفت في تلك اللحظة من تجلياته النادرة من الجغرافيا والتاريخ. ولم تطفو على السطح مرة أخرى إلا بعد أن تدخل أبولكيلك مدلياً بدلوه كآخر العبابسة، في تصريح رسمي تناقلته لندن والجزيرة، بأن إسرائيل عبر عملائها في جلابي والمنطقة، تتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد الأسيّرة عبر جلابي، بهدف خلق أزمة وطنية تمكنها من السيطرة على منابع النيل، وإقحام أنفها في موضوع النفط، الذي ظلت عقود البلاد الكبيرة مع

الشركات الأجنبية لاستخراجه وتكريره وتصديره غامضة! لا يعرف عنها أحد شيئاً كأكثر الاسرار قدسية في أروقة قصر أبو لكيلك.

وفي الحقيقة أن أبو لكيلك وأسرته وحاشيته، عملوا منذ وقت مبكر على تحويل اقتصاد البلاد الكبيرة إلى حساباتهم الخاصة في عدد من بنوك العالم!

عندما اكتشف موظفو السكن العشوائى، أن أهالي جلاي ليست لديهم إجابة على ما طرحوه من أسئلة مباشرة، بادروا بطرح سؤال آخر أكثر بديهية:

“إذن لماذا أطلقتكم على بلدتكم هذا الاسم؟! ” وهنا انبرى كل الأهالي للرد بصوت واحد جهوري ارتجت له أطراف المدينة الريفية: “لم نطلقه ولا نعرف من الذي أطلقه!”

فازدادت حيرة الموظفين، الذين كانوا يعلمون مما درسوه في وثائق علاقات الأرض والرق، في البلاد الكبيرة، أن جلاي ود عربي مرت بتحويلات عديدة عبر التاريخ، فقد سكنتها القبائل الغربية في مرحلة من مراحل تاريخها، وعمدت وقتها إلى تكوين مؤسسة منظمة للرق والاسترقاق، فقد كانت جلاي في ذلك العهد مركزاً لجلب الرقيق، وانطلاقاً منها كقاعدة كانت حملات جلب الرقيق تنطلق في مجاهيل البلاد الكبيرة.

وعندما تلاشى نفوذ المجموعات الغربية، وأصبحت السلطة في جلاي بيد المجموعات الجنوبية تغير أسم جلاي من جلاي ود عربي إلى جلاي ود جنوبي.. إذ استمرت ثلاث من المجموعات الجنوبية في تأكيد وترسيخ مؤسسة الرق، وقامت بحملات مبدعة إذ أدخلت تحسينات كبيرة على نظام المؤسسة الموروث.

لكن لتناقضاتها الذاتية كمجموعات تسترق بعضها (ذات التناقضات التي أودت بسلطان المجموعات الغربية) سرعان ما تهشم نفوذها

تحت ضربات معاول المجموعات الشرقية؛ التي لم تستفد من دروس الغير أو الماضي هي الأخرى (بعد أن غيرت الاسم إلى جلاي الشرقاوي) ومضت في ذات الطريق الذي أسقط نفوذ سابقيها.

ما أتاح الفرصة لأن تكون هذه المجموعة، لقمة سائغة تحت ضغط المجموعات، التي هزمت في المراحل السابقة التي مرّت بها جلاي، ومن ثم كان الطريق ممهداً لاستيلاء الجلاية العرب والنهريين على جلاي، ومنذ هذه اللحظة أصبح إسمها جلاي ود عربي!

واستمر هذا الاسم على الرغم من زوال ثقافة الجلاية، وأنهيار مؤسسة الرق تحت ضغوطات العالم والصحوّة المفاجئة لضمير الآباء المؤسسين لمرحلة ما بعد الاسترقاق وجلب الرقيق في جلاي!

كما أن المساحة الجغرافية لجلاي الحقيقية، التي كانت تشمل المدينة الريفية. تقلصت و تقلصت إلى أن تحولت لأراض بور قام سكان المدينة الريفية باحيائها بالزراعة، إلى أن برزت بشكل مفاجيء جلاي مرة أخرى للوجود..

التاريخ الأقدم لجلاي (وفقا لبعض الاجتهادات الأثرية والتاريخية) يفيد بأن جلاي مقر لممالك جلاية عريقة منذ عصر ما قبل الديانات التوحيدية الستة، لكن هذا التاريخ ظل مجهولاً فالكشوفات الأثرية التي أفادت بأن جلاي والمدينة الريفية، هما موقعا مملكة ساورا، التي ظلت أسباب نشوئها في هذا المكان وعوامل انهيارها غامضة إلى حد كبير، لم تقنع أهالي جلاي بأنهم أحفاد لأسلاف ضربوا بجذورهم في هذا المكان!

إذ كان أهالي جلاي بصورة عامة، يشعرون أن حياتهم هشة. وأنهم يقيمون على قشرة بيضة سرعان ما تتهشم ويتهشمون معها، ولا يدري أحد: كيف تكون هذا الشعور داخلهم!

هزّ الموظفون رؤوسهم، واقترحوا على أهالي جلالي ود عربي اسم (الفردوس) كبديل. فهزّ الأهالي رؤوسهم دون تعليق.. وهكذا أصبح حلّة الناظرين اسمين:

اسم رسمي مدّون في السجلات “الفردوس” واسم أشتهرت به الحلّة “جلالي ود عربي”، وهذا الاسم الأخير كانت التنظيمات السياسية الطائفية تستغله أيما استغلال في الانتخابات، إذ يسرح السياسيون “المساطيل” والمخمرين بخيالهم يتحدثون عن أمجاد مزعومة لـ “الجد المؤسس لجلالي!”

الأمر الذي يجعل أشجان عدد كبير من الأهالي ومشاعرهم “الوطنية” تهتاج فيصوتون للمرشحين الأماجد وهم يهتفون: “لا نصادق غير..”، “لا نباع إلا..”، “الجلالي ود عربي تقف من خلفكم وتشد من أزركم”، “جلالي ود عربي تحي الثورة”، “الجلالي ود عربي جاهزة لحماية العقيدة والوطن”، “الجلالي ود عربي تدعم ضرب السد العالي بصواريخ كروز”، “السد السد لازم ينهد”، “الجلالي ود عربي تتحدى أميركا وتحذرها للمرة الأخيرة”، “الجلالي ود عربي تتبنى مذبح أم الحمام ومحاولة اغتيال امبراطور وادي النيل الفاشلة!”

هذه الهتافات هي في الأصل عبارة عن الشعارات المكتوبة “بالتفتة” والبوهية على القماش المخرم، والتي علقها السياسيون في أنحاء جلالي على جدران البيوت وأبواب الدكاكين والكناتين والبقالات الصغيرة.

وهتاف أهالي جلالي بها في لحظات “التوتر والاهتياج الوطني” هو إستثناء ينقضي بانقضاء حالة التوتر والاهتياج العابرة، ففي واقع الأمر، أن هذه الشعارات كانت تستفز الكثيرين من أهالي جلالي ود عربي، الذين يعتقدون أن الجد المؤسس “جلالي” ما هو إلا جد وهمي خرج من بنات إبليس الأفكار الجنكوية!

وإذا كان موجود فعلاً جد بهذا الاسم، فهو غير جدير بأن تفتخر به بلدة جلاي ود عربي العظيمة.

وأن أي قول خلاف ذلك هو إستفزاز مع سبق الإصرار والترصد للذين لا تربطهم به صلة نسب أو شجرة قرابة، وأن توظيف السياسيون لحدوتة جلاي ود عربي ما هو إلا تكريس للتواطؤ ضد القيم النبيلة التي أساء إليها الجد جلاي المغضوب عليه.. آمين..

وهكذا يثير السياسيون الذين يفدون أيام الانتخابات، المشاعر القمقمية الحبيسة لأهالي جلاي ود عربي وذكريات الغزو والسلب والنهب والفتوحات التي جادت بها العبقرية البدوية الصحراوية للجنكويز القدامى!

وكان ستين ألف شيطان في داخل كل شخص من الأهالي انطلقوا لتعانق قبة السماء هتافاتهم التي يرتج لها السمك والثريا وكواكب جمهورية الصين أيضا!

كان أهل جلاي ود عربي، لم تكن هذه الهبات الغضنفرية جزء من حياتهم العامرة بكل ما هو عجيب وغريب! فما أن ينتهي موسم الانتخابات ومع نفاذ المصاريف والسكر والزيت والذرة؛ التي اشترى بها السياسيون أصوات الناس، ينسى أهالي جلاي كل شيء خاصة تهديداتهم لأمريكا، التي دفعت وزارة خارجيتها لأن تضع جلاي ود عربي ضمن المناطق الراحية للإرهاب والتطرف!

لا يعتبر أهالي جلاي أن هذا أمر خطير، فلا أحد منهم مهموم بعلاقة جلاي بأميركا. أو علاقة أميركا بالعالم الذي جزء منه جلاي الموقرة..

هكذا تعود الحياة في جلاي بعد الانتخابات لإيقاعها الراكد المألوف، محفوفة بالأمال العراض التي رسمها السياسيون في أذهان الناس قبل أن يرحلوا، فأهل جلاي ود عربي كأسلافهم الغابرين لا يتعلمون من

دروس الماضي.. يصدقون السياسيين ويظلون حبيسين لهذه الأحلام التي تبدت عنها وعود الانتخابات، التي يبذلها السياسيون بكرم في لحظات الحماسة المنبرية، أمام مكبرات الصوت، حتى أن أحدهم وعد أنه لو فاز سيصطحب كل أهالي جلاي فوجا إثر فوج في رحلة سياحية للفضاء الخارجي، حتى يطلعوا على إنجازات واحدة من سلالات أسلافهم الغابرين الذين هبطوا من السماء!..

ووعدهم آخر أنه حال فوزه سيشيد طرقا قارية تربط البلاد الكبيرة بالقارة الأم، و سيشيد في “دار صباح” كبري على البحر الأحمر، ليسافر الناس إلى الحج بالعربات أو الدواب بدلا عن البواخر التي تتعرض للغرق، والطائرات المهددة بالسقوط!

وطبعا صدقة أهل جلاي رغم إدراك بعضهم أن السياسيين أصلاً يبذلون الوعود لأنهم لا ينفذونها، فهي “طق حنك” صرف!..

وفي الحقيقة لو قاموا بانفاذها لن يجدوا أحداً يصوت لهم، فالناس وقتها سيعون أن هؤلاء السياسيين ليست لديهم برامج، وكل ما لديهم هو أضغاث أهوام في السلطة والتسلط، والتي عندما تمنح لهم - السلطة - لا يعرفون ماذا يفعلون بها سوى ارسال الجرافات للبلدات والأحياء العشوائية خارج التخطيط لهدمها دون تقديم معالجات لأصحاب هذه البيوت المهدمة أو بدائل! المفارقة أن جلاي لا تزال خارج التخطيط، كما أن السواد الأعظم من سكانها ليست لديهم شهادات ميلاد أو جنسية!!

بالتالي قانونيا ليس لديهم الحق في التصويت لعدم وجود أو اكتمال أوراقهم التي تثبت شخصياتهم، كما أنه والأمر كذلك ليس من حق المناطق خارج التخطيط، أن تتمتع بالخدمات الأساسية إلا بعد تخطيطها، ومع كل ذلك يعتقد أهالي جلاي ود عربي -أصالة عن أنفسهم ونيابة عن كل شعوب البلاد الكبيرة التي تشبههم- أنهم

مواطنون مواطنة كاملة، على الرغم من أن جلالي ود عربيّ تنقصها الخدمات الأساسية!

وهذا الأمر عندما يثار يلتبس على أذهانهم ويربك أفكارهم، إذ لا يستطيعون حل المعادلة الصعبة التي تقول بنهوض المواطنة في الخدمات.. كما قال أحد موظفي تنظيم القرى ومعالجة السكن الاضطراري أثناء تدخينه البنقو في بيت مزيد الحلبي!

حلة جلالي ود عربيّ رغم حداثة نشأتها، في هذه المرحلة من تاريخها المتقطع كجزر معزولة، ظلّت كالنبات الطفيلي تتمدد بسرعة، حتى التهمت أجزاء واسعة من المدينة الريفية.

لم يكن أحد من سكانها من جيل المؤسسين، فالجميع كانوا يؤكدون، أنهم جاءوا ووجدوها ممتلئة بالناس، كما أنها لم تشهد أي حالة وفاة تقتضي وجود مقابر لوقت طويل من الزمن! والأغرب من ذلك أن كل سكانها بين سنّ المراهقة والخمسين.

ولاحظ موظفو السّكن العشوائيّ أيام حملات الهدم أن أهالي جلالي كائنات محيرة، فكلما جاءت الجرافات وهدمت جلالي، يُفاجأ المجلس البلدي أن الأهالي شيدوا جلالي من جديد، فجلالي تجرّبة سكنية فريدة، لا تياس مثل الأحياء العشوائية الأخرى، رغم فقدتها لأرواح عديدة في أيام الهدم المتكرّرة، كأن روح شجاعة هي التي تحرك كل الأهالي وتوحدهم، وكل الأرواح التي فقدتها جلالي، قتلت مقابلها عدداً من عساكر الجيش والشرطة، الذين كانوا يأتون لتنفيذ حملات الهدم، الأمر الذي أفضى في النهاية إلى يأس المجلس البلدي.

فبعد خمسة عشرة محاولة هدم لجلالي صرف نظره تماماً فيما أسماه ب(مسألة جلالي ود عربيّ المعقدة) و أقترح رئيس المجلس أن يطلق عليها اسم "الفردوس" وتترك وشأنها كأى منطقة حكم ذاتي)..

ما لاحظته موظفو السكن العشوائى أيضا، أيام حملات الهدم التي كانوا يستعينون فيها بالجيش والشرطة (وخلف ذلك بالطبع ضحايا بعدد شعر الرأس من الجانبين) هو غياب الأطفال والمسنين، فهزوا رؤوسهم ومضوا، ولم يعودوا بعد ذلك أبدا.

لكنهم كتبوا تقارير صارمة لم يتسرّب منها سوى عبارة واحدة:

“هذه البلدة، يجب ألا تشملها خدمات الرعاية الإجتماعية”

مع أن برنامج الرعاية المذكور والذي لا وجود له سوى على المستوى النظري (ومع ذلك حتى نظرياً حرمت منه جلاي ود عربي!!)..

أدهشت هذه العبارة، التي سرّبها بعض الموظفين، الذين يرتادون جلاي طلبا للمخدرات أو الخمر أو الجنس، ليدخّثوا أو يحتسوا أو يقيموا علاقات جنسية (كل هذه الخدمات مجانا)، بعد أن يقدموا وعودا عظيمة للأهالي أصحاب الشأن في هذه الأمور (أنهم سيستخرجون لهم عقود ملكية للأرض:

“كل فرد منكم لازم يحصل على قطعة أرض في جلاي.. دي منطقة عندها مستقبل، كما أنه هناك كلام تحت تحت أنها منطقة نفط.. ولو ما فيها نفط أو ذهب ذاتو.. قطعة الأرض بتنفعكم إن شاء الله تبعوها للأمم المتحدة، تعيد فيها توطين اللاجئين البوسنيين، أو تعمل فيها مزارع دواجن نظام أمن غذائي وكدة”

وهكذا يطلق الموظفون العنان لأحلام أهالي جلاي، الذين يبدأ الواحد منهم يتصوّر شكله في العقال والقطرة والجلباب الأبيض، المصنوع خصيصا في الصين لأهالي جلاي الأثرياء..

ومتضي به الأحلام فيتخيل نفسه وهو سائح في بلاد العالم الواسعة، يحمل عملة جلاي التي تجنّد في طريقها كل أوراق النقد البترولية والصناعية، ولا تتوقف أحلامه إلا بعد أن يرى نفسه قد اكتفى

من ترحال السياحة، وملذات الدنيا وغادر الفندق عائداً إلى جلاي
الحبيبة، حيث تحط به طائرته الخاصة في مطارها الدولي، عندما
يطيب للموظفين تكرار:

“أو تعملوا فيها مزارع دواجن ..”

تضحك “فداديات” جلاي؛ إذ يخطر على بالهن لحظتها “حسان
جداد” ..

ظل سؤال الرعاية الاجتماعية الذي سربه الموظفون؛ يشغل بال
جلاي إلى أن تمكن منها ذلك الحريق العجيب المريب، فالمطافي لم
تتدخل، إلا بعد أن أتي الحريق عملياً على كل شيء!

أشارت بعض الشائعات الموثوقة، أنه تكتيك جديد من جماعة
أبولكيلك في المجلس البلدي الجنكويزي لمحاربة السكن العشوائي!

IX

لم تكن أم التيمان، هي القصة الوحيدة في حياتي بجلاي ود عربي. فهناك قصة أخرى مع ست البنات العثمائة، في تلك السنوات الباكرة من مراهقتي.

كانت ست البنات العثمائة بين آن وآخر تصطادني، وأنا أترنح من "الكانجي مورو" أو "العسلية" ..

أتسلل خفية منفلتاً بحذر من بيت أم التيمان، فتحملني العثمائة حملاً على دخول بيتها.

في البدء كنتُ أمانع، ولا أوافق إلا بعد الحاحها الشديد.

بعد ذلك أصبح بيت ست البنات محطتي التالية لبيت أم التيمان. ولم تكن تدع أحداً يراني إذ تدخلني إلى دارها من باب خلفي ممّوه.. أَلج عبّره الى غرفتها الخصوصية..

كانت تغسل لي وجهي، وتمسح عليّ رأسي كقط وتقبّلني بجنون، وقبل أن تدعني أنصرف تعطيني أوراق الليمون أو فصوص الثوم لأضعها في فمي وأمضغها كي تُزيل رائحة "الكانجي" أو "العسلية" من أنفاسي.

عدد من صغار التجار في المدينة الريفية، أغلقوا محلاتهم وانتقلوا إلى جلاي.. كان أبي أحد هؤلاء التجار الذين لا أدري سبب انتقالهم ولكن بالنسبة لأبي، فرمما كان الحنين لبيته القروية التي لم تعرّف الكهرباء ومواسير المياه هو السبب.

تلك البيئة الغامضة بعواملها السحرية، في أقصى دار الريح.. ربما ذلك هو ما جعله ينتقل بدكانه الصّغير إلى جلاي ود عربي، فهي تُمثل الظل للقريّة التي جاء منها.

في البداية كانت الحرب بين أبكر والشيخ "جداد" غير معلنة، ولكن ما أن سافر حسان جداد، إلى الأراضي المقدسة وعاد، بعد أن بقي فيها لأكثر من عامين، وأصبح اسمه الحاج أو الشيخ حسان بدلا عن حسان جداد حاف، حتى أبرز أنيابه لأبكر! بالحديث الكثيف عن الدجل والشعوذة، ثم لم يلبث أن أخذ في خطبة الجمعة، يخصص محاور وفصول كاملة عن ذلك ضاربا بأبكر المثل!..

ورغم ذلك كان أبكر صامتا صمتا مرييا، لا ينس بينت شفة.. انطلقت بعض الشائعات تعليقا على حملة حسان جداد ضد أبكر، زاعمة أنه يحسد أبكر على النساء الجميلات، اللواتي يأتين من المدينة الريفية خصيصا، كي يزيل عنهن "العوارض" أو سوء الطالع! أو يعالجهن من "الطب" أو العين، إلخ..

وذهب البعض الآخر إلى أن واحدة من اللائي يأتين إلى أبكر المعراقي، هي في الواقع سلمى خير الله التي تسكن المدينة الريفية، الأخت غير الشقيقة لجداد ذات نفسه!

وأنها تأتي لأبكر بغرض أن يكتب لها "للمحبة والزواج" أو يجدد لها ما كتبه سابقا، وجنح خيال البعض أن ثمة علاقة جنسية بينها وبين أبكر، هي الدافع الأساسي لحملة جداد الشعواء.

بينما أصر آخرون أن جداد رجل صالح ويرفض البدع، وهنا اضطر البعض إلى تذكيرهم بالعلاقة المريية التي تربط جداد وأدروب، والتي لا يمكن أن تكون من علامات الصّلاح!

وهكذا تعددت الروايات والحكايات حول المسألة، واضعة نصب عينها (هذه الحكايات والروايات) عوامل وعناصر وأسس وخيارات واحتمالات عدة، تقف خلف الحملة الانتقامية التي قادها جداد ضد أبكر، منذ عودته الميمونة، من الأراضي المقدسة، ولولا تهديدات

البعض لجداد لتطورت إلى بسوس أخرى!

ولكن، بعد أن داهمت قوات الشرطة العسكرية والأمن الإيجاي وجهاز الأمن العام، في الساعات الأولى من فجر أحد الأيام منزل أبكر المعراقي وحاصرته، وأخرجته مقيداً بحبال السلب الغليظة الذي لا تعقل به إلا البعير، ونصبت له عموداً من خشب الصنوبر الذي كانت الحكومة الجنكويزية قد استوردته من لبنان خصيصاً للاعدامات والشنق، ونصبت هذا العمود في قلب أكبر ميادين جلالي بعد أن نادى المنادي في الناس بالميكروفونات.

واصطف العسكر ورموه بالرصاص!

بعد هذه المداهمة السريعة والمباغثة والمحاكمة الإيجازية السريعة، والإعدام الفوري على هذا النحو، أصيبت جلالي ود عربي، برعب لم تستطع التخلص منه إلا بعد شهور عديدة حتى أنها في الشهور الأولى، لم تجرؤ على معرفة السبب، خلف ما فعلته أجهزة الأمن بأبكر، بهذه الطريقة العلنية البشعة!!

رغم أن الحكاية كانت واضحة وضوح الشمس، كما أن الأجهزة الأمنية لم تحرص على إخفائها، إذ أعلنت في بيان رسمي أن أبكر ليس أبكر فاسمه الحقيقي هو آدمو.. ذلك المتمرّد المسلح المسئول عن التمرد الذي حدث قبل فترة، في الأطراف الغربية للبلاد الكبيرة على الحدود مع تشاد وليبيا وإفريقيا الوسطى!

وبعد احتواء الحكومة الجنكويزية مؤقتاً للتمرد، بمساعدة تأمرية من عدد من قادة المجموعة المتمرّدة، ومجموعات إثنية منافسة للمجموعة التي ينتمي إليها أبكر، وانقسام مجموعة أبكر نفسها بسبب عدد من الاختراقات الناجزة من قبل الحكومة الجنكويزية لمجموعات الإنقسام.

لهذه الأسباب وأسباب أخرى استطاعت حكومة أبو لكيك الجنكويزي القضاء مؤقتاً على التمرد!

وكان أبكر الذي لم يرى وجهه الجديد سوى قلة، قد هرب منذ وقت مبكر؛ عندما لم يعد يثق بأحد من المجموعات المنقسمة، ولم يتم العثور عليه رغم البحث المكثف الذي أجرته أجهزة أمن أبو لكيك الجنكويزي.

فقد اختبأ أبكر متنكراً في شخصية معرّاق، في جلالي التي لا يمكن أن تخطر على بال الأجهزة الأمنية، كمكان يصلح لاختباء أي شخص لطبيعة حياتها العلنية، التي لا تعرف الأسرار!..

ويبدو أن إختباء أبكر، وتنكره تغطية لشخصيته الحقيقية، كان مؤقتاً ريثما يتمكن من إعادة بناء تنظيمه المسلح وترتيب أوضاع رجاله، و ترتيب أوضاع ثورته المجهضة لإشعال نيران تمرد من جديد. هذه الرواية الرسمية أقتعت الأهالي. في البدء. لكن، بعد أن اطمأن الموظفون الذين يرتادون جلالي إلى زوال الخطر عنها، وأن الأوضاع في جلالي قد عادت إلى طبيعتها، كما أكدت إذاعة لندن بذاتها وصفاتها ذلك..

إذن بعد أن تأكد الموظفون بما لا يدع مجالاً للشك لديهم بعد استماعهم للندن و لعدد من الفضائيات، عادوا يرتادون جلالي مرة أخرى يمارسون المثاقفة التحليلية للحدث، أثناء ممارستهم الجنس أو أثناء قعدات الخمر والحشيش.

وهكذا خرجت إلى العلن في فضاءات جلالي ود عربي، تحليلات تختلف تماماً عما قالته الحكومة الجنكويزية رسمياً في بيانها الشهير، وهكذا بدأ الحديث عن انتهاكات حقوق الإنسان والحق في محاكمة عادلة، الخ.. مما يسميه أبو لكيك بـ: خزعات العولمة!

عندما غادر الأثر المرزوع أهالي جلاي، علموا من بعض المتنورين (علمانيين جلاي ود عربي) أن بعض القوى السياسية المعارضة أصدرت بيانات سرية تُعصد من معنويات أهالي جلاي (في هذه "المحنة التاريخية التي يمرون بها" - كما جاء في إحدى الصحف السرية التي تطبع على أوراق الرونيو بآلة الخشب البدائية؛ المسماة "كرجاكة" والتي هي إحدى الإنجازات العبقريّة للنضال السريّ تحت الأرض ضد (نظام أبو لكيك)..

من أكثر التحليلات التي استوقفت أهالي جلاي، ذلك التحليل الذي التقطه مزيد الحلبي من أحد عمال السكة الحديد البائدة بأن: أبكر الذي أعدمته قوات الأمن ليس هو آدمو ولا يحزنون، وإنما هو كبش فداء لإحباط "جماهير شعبنا"، وقطع الطريق على انتفاضتها الشاملة والمحمّية بالسلاح!

فهذا الإعدام هو بمثابة القضاء على أمل الحركة الجماهيرية، في هبتها الثورية القومية والأممية (حتى هذه اللحظة لم يُشاهد ذلك التعامل البروليتاري البائس في جلاي ود عربي مرة أخرى على الإطلاق، كما أن أسرته لا تعرف مكانه، وزملاؤه القدامى في العمل غيروا وظائفهم، فاغترب بعضهم إلى الخليج ومصر وقدم بعضهم طلب إجازة طويلة الأمد بدون مرتب، واستقال البعض الآخر بدعوى أنه وجد فرصة عمل أفضل (مع أن شهود عيان يؤكدون أن هؤلاء بالذات أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم، وليست هناك عروض أفضل قدمت لهم، أو أي شيء من هذا القبيل!!).

هذا الموقف من الموظفين أسعد مسئولين سكة حديد أبو لكيك وشيكة التلاشي، فهذه المؤسسة أصلا تم تدميرها بصورة منظمة بسبب أن نقابتها شكلت مصدر إزعاج لكل الحكومات الجنكويزية منذ جعفر الجنكويزي الثاني مرورا بصديق الجنكويزي الرابع عشر وصولا لأبو لكيك الجنكويزي الخامس.

وبتقديم الموظفين لاستقالات حملوا عبئاً كبيراً عن المسؤولين، الذين كانوا عملياً قد باعوا بقايا السكة الحديد لجمهورية "مالفي" في أقصى الجنوب الآسيوي، باعتبار هذه المؤسسة (السكة الحديد مثلها مثل المشاريع الزراعية: خاسرة!)

وهكذا لم يعد - ببيع السكة الحديد - أي مؤسسة قطاع عام، فقد كانت هي آخر مؤسسات القطاع العام، التي تبقت من حملات البيع المسعورة لمؤسسات البلاد الكبيرة الأسيرة، وكان الموظفون يدركون قبل تقديم استقالاتهم (التي يؤكد البعض أنهم أجبروا عليها) يدركون أن السماسرة الذين أطلقهم أبو لكيلك في أصقاع الأرض الأربعة، لم يجدوا مستثمرا مغربا بعد إلى أن لاح في الأفق ذلك المستثمر الآسيوي. مصحوبا بأموال دويلة نفطية مساحتها أصغر من جزيرة تو التي تتوسط عاصمة الجنكويز مترامية الأطراف.

لكن الشائعة الجديرة بالاهتمام الشعبي في جلاي ود عربي، تلك التي أنتجها الأهالي أنفسهم، والتي تفيد أن جداد وظف علاقته النافذة للقضاء على أبكر، الأمر الذي جعل أهالي جلاي ودعربي يخافون جداد كثيراً (وندم البعض بالفعل على كلام ربما يكون قاله لجداد في وجهه ذات مرة، و انتابت بعض زهاف القلوب ممن أساءوا لجداد الهالوس في أحلامهم، إذ يأتيهم جداد في شكل ديناصور أو تنين أو كائن فضائي غريب ليشتت أحلامهم، بعد أن يكتم على أنفاسهم أو يخنقهم أو يبتلعهم، فيرون أنفسهم في أمعائه الغليظة، التي تعتصرهم.. يموتون ببطء ببطء شديد)..

وهكذا تاب هؤلاء عن الإساءة إلى جداد، والذين كانوا أكثر شجاعة خففوا حملاتهم ضده!!..

التخوفات التي ابدتها المدينة الزيفية عند نشأة جلاي ود عربي، اتضح أنها كانت تخوفات في محلها. فقد صدقت هواجسهم وظنونهم،

فبعض نساء الموظفين والعمال كنّ يتركنّ بيوتهنّ ما أن يغادر أزواجهن إلى العمل، ويجئن إلى جلالي ود عربي ليمارسن نزواتهن. ولا يعدن إلى بيوتهن إلا عندما تقترب مواعيد عودة الأزواج المنهكين.

كذلك أصبح الطلاب يتسللون من مدارسهم، ليقضوا بقية يومهم الدراسي في جلالي لتلقي دروس الحياة السرية!

كان من أبرز معالم جلالي ود عربي كرتون وأدروب وجداد وأبكر وجمال الحلة ورياك وعبد الرحمن ود التوم (العوير) وكسبان الضّاوي، الذين كانوا يشتركون جميعهم في أحوالهم الغريبة، كما دونتها الذاكرة الشعبية لجلالي.

هذه الأحوال التي أصبحت مألوفة، إذ لم تعد بمرور الوقت تثير إهتمام أحد! على الرّغم من أن ذاكرة جلالي نفسها، نهضت في هذه الأحوال!

لكن ما ظل ثابتا و راسخاً، أنه ما أن يُنطق اسم جلالي ود عربي حتى يتبادر إلى الذهن كرتون وأبكر وجمال والّعوير والضّاوي.

فكرتون (وكرتون هذه ليست جزء من اسمه الحقيقي الذي لم يفصح عنه لأحد أبدا) كان يأتي مهنّدا ومتأنقا إلى جلالي صبيحة كل جمعة، فيدخل بيت السّرة ست المريسة، ويبقى ليشرب حتى تتلاشى سحابة النهار، فيخرج مشعشعا، مترنحا ليمضي باتجاه المدينة الريفية متعثرا الخطى متمتما بكلمات لم يسمعها أحد سواه!..

ولا يبين مرة أخرى إلا صبيحة الجمعة التالية، وهكذا اعتاد الناس عليه: يأتي ليشرب الخمر البلدي، وينصرف بهدوء دون أن يسأل أحد أو يسأله أحد! حتى أنه عندما سكن مع السّرة في بيتها، لم يبد هذا الأمر غريبا أو مثيرا للتساؤل (بعض الشائعات أكدت أن جداد ذاته بشحمه ولحمه لم يهتم لهذا الأمر ليدرجه ضمن حملاته الوعظية في

ترويع الأمنين من أهالي جلالي) رغم تبجحاته السابقة، عن إهتمامه
لأمر السّرة وابنيها ورغم غاراته الدينية الجهادية المنتظمة!
ما كان يثير التساؤل حقا هو: أين كان كرتون يسكن في المدينة
الريفية، وكيف كانت حياته بالضبط ولماذا ترك بيته ليسان السرة
ست المريسة؟!

X

الآن ومن أعلا بُرّهات هذه اللحظة السرمدية، وفي لحظة احتضار.
حيث جسدي مُلقى بين الحياة والموت، تجيء كل هذه العوالم ماثلة
أمامي. حيث يتكثّف الزّمن حتى ليصبح دهرا!

فأجد نفسي جالسا على شُرفة الخاطر، لأسمع صوت حسن
ممتزجا في صوت شقيقته سارة.

صوتا واحدا متوحدا قادمًا عبر الزّمان والمكان مختزلا المسافات
وقوانين الضوء والكيمياء والفراغ الواسع الذي يفصلنا!

يحدثني عن جلاي ود عربي التي لم تعد كما هي ذاتها تلك
البلدة التي ينتهكها زوار الفجر وجرارات المجلس البلدي وقرارات
اللجان الشعبية الفاسدة، وحملات الانضباط والنظام العام، والمباحث
الجنائية.

فقد تغير الحال في مدينة الفردوس (جلاي ود عربي سابقا)..

أحاول تجميع الوقائع والأحداث، وترتيبها في ذاكرتي لإنشائها من
جديد.. (جلاي) كما عرفتها: بلدة كل شيء فيها يُنبىء دائما، أن ثمة
كارثة ستحدث بعد قليل!.. فكل شيء معد للانفجار!

فجداد لم يكتف بإعلان الحرب على أبكر فحسب، إذ سرعان ما
شمّلت حملته الانتقامية رياك دون أن يدري أحد سببا مقنعا لذلك.

فجداد دون سابق إنذار أخذ يُحرض الأهالي على مقاطعة رياك
(زاعما أنه وثني مسيحي كافر) أمرا عباد الله المؤمنين في جلاي
بالابتعاد عنه وعزله، كالمريض المعدي مستهديا بالحديث: “إنما
المسلمين (...) تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى”

فكان البعض يهز رأسه موافقا، وربما تأخذه الحماسة فيهتف:

“واقتلوهم أينما ثقفتموهم”

فيرد عليه آخر:

“وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...”

وبالطبع يتدخل علمانيو جلاي همسا ضد هؤلاء “الهييفة” الذين يريدون أن ينالوا حظوة عند جداد ويتجراً بعضهم فيرفع صوته معارضا:

“أنت تريد إشعال الفتنة الدينية.. الدين لله والوطن للجميع”

بينما لا يابيه آخرون إذ ينصرفون بهدؤ، ما أن يبدأ جداد استهلال حملته.. وهؤلاء الذين لا يابهنون على وجه الخصوص، هم أول من لاحظ التبدلات التي اعترت شخصية كرتون التي أعتادوها.

إذ لم يعد كرتون يغادر جلاي إلا مرة أو مرتين في الشهر، حاملا كل الكراتين وباغات الزيت الفارغة التي يشتريها من الدكاكين والكناتين في جلاي، يربط كل ذلك على حمّار السرة ثم يمضي بها إلى المدينة الريفية.. يغيب إلى أن تنقضي سحابة النهار فيأتي بدونها.

كان الأهالي في جلاي يتساءلون:

“أين يمضي بكل هذه الكراتين و(الباقات الفارغة؟!)”

فكان جداد يرد عليهم:

“رّما تكون فيها مصلحة. قطع الرقاب ولا قطع الأرزاق”

ورد جداد عادة يكون متوقعا، خاصة في هذه الحالة نظرا لمحاولاته الدؤوبة في تجنيد كرتون الى صفه، بعد أن نجح في تجنيد أدروب، الذي كان قد ارتبط به في علاقة مريبة، أثارت الأسئلة حتى في الأوساط العليا للعرافين، وفقا للشائعات التي ملأت جلاي ود عربي.

يعتقد البعض اعتقاداً جازماً أن جداد، أنضم إلى العرافين نظراً لدوره الكبير في اعتقال وإعدام أبكر المعرّاقين، وأن العرافين هم الذين مولوا مشروعه الخاص بالاتجار في الدجاج والبيض، وأنه يحاول تجنيد كرتون لهذه المجموعة العجيبة، التي تعرف كل شيء، فما أوتته من العلم ليس بقليل، كما أن جداد حاول من قبل تجنيد ريباك ففشل إلا أن نجح في تجنيد أدروب دفعه إلى مواصلة الجهاد لتجنيد المزيد من العرافين الجدد.

أحوال العالم المنسي لجلاي ود عربي مليئة بالثغرات والثقوب (طبيعة الذاكرة المنتهكة لجلاي ذاتها) إذ تسم ذاكرتي في هذه اللحظة الفاصلة بين عالمين بالإنهاك، فتسقط منها الذكريات عشوائية، متداخلة، غير مكتملة.

تتكوّم الأحوال: حالا فحالا، أمامي ككتلة من القلق الكلي والأحاسيس والشجن. فيكون التساؤل كالهلاك: هل كان لهذه البلدة وجود أصلاً؟ أم هي تشكلت من دوار خمر البارحة، التي لا تزال ابخرتها تفوح من أنفاسي!

لم يطلق أهالي ود عربي على حسان اسم جداد للسخرية منه! فالتسمية جاءت للرجل من تجارته في الدجاج والبيض. إذ لم يترك بيضة واحدة أو دجاجة "حائمة" في شوارع جلاي أو المدينة الريفية، إلا استهدفها بالشراء من أصحابها. وشملت اهتماماته بالطيور حتى فراخ الحمام، وعندما توسعت مداركه ضم إلى تجارته الأرانب والبوط وديك الروم ودجاج "الفولان" لكن لم يسر عليه سوى اسم: جداد "دجاج".. في الأيام الأولى لتجارته، عندما وفد إلى جلاي حديثاً، كان يبذل مجهوداً جباراً في سبيل جمع أكبر قدر ممكن من الفراخ والبيض والفراريح.

يمشي على قدميه مسافات طويلة و يطرق كل الأبواب، في كل أحياء جلاي والمدينة الريفية مترامية الأطراف ليسألهم ان كان لديهم شيء منها للبيع.

ويوما بعد آخر أصبح أشهر من المحافظ، كل المدينة الريفية تعرفه. فلم يعد بحاجة للبحث عن الطيور أو البيض. فكل شيء أصبح يأتيه في مكانه. فلا أحد لديه بيض أو أي نوع من أنواع الطيور الجلاية أو العجمية يرغب في بيعه إلا وأتى به إلى جداد قاطعا المسافات من المدينة الريفية إلى جلاي (هذا إذا لم يكن من أهالي جلاي).

الذي ابتداء من هذه اللحظة أصبح أسمه حسن جداد (بدلا عن حسان فقط - لوحظ أنه كان يفخر بلقبه الجديد "جداد" إلى حد الانتماء، فعندما تقول له "جداد" يتسم بسعادة غامرة كأنك تناديه بـ "حضرتك" أو (جنابك) أو "سيادتك" ويبدو أن عمل الرجل في الطيور جعله من أصحاب الأحلام المحلقة في سماوات ليس للآخرين الأجنحة الكافية ليطاوها!

فالرجل طرح مشروع سلسلة من المجمعات الاستهلاكية أطلق عليه: "الأمن الغذائي". تزامن إطلاق هذا المشروع الأخطبوطي، الذي شمل ضواحي وبلدات المدينة الريفية، مع تأجير جداد لمحل في قلب السوق الكبير للمدينة الريفية.

وهكذا اتسعت تجارته وأصبح من أهم الموردين للبقالات الكبيرة، وأصبح محله في السوق الكبير للمدينة الريفية، مركزا لمجمعاته الاستهلاكية، التي شملت مشاريع فرعية مثل "مطاعم جداد للوجبات السريعة" .. "جداد للعريب والمرطبات التراثية" .. "جداد للخضر والفاكهة" .. "جداد للخردوات" .. "جداد للترحيلات عبر المدن" .. "جداد للصناعات الدوائية - تخفيضات خاصة للكلمات الطبية والكوتكس والكوندمس..

وليفيترا للذين لديهم مأخذ على الفياجرا بسبب تحفظاتهم على الإعلان التلفزيوني المبتذل للفياجرا الذي يعرض فيه أحد الأشخاص وهو يغرس مسمارا سميكا في جدار صلب دون أن ينتهي هذا المسمار، الذي يبدو من الواضح أنه سقى بماء الفياجرا، وتسهيلا لخدمة الزبائن ابتدر جداد بند خدمات توصيل مجانية.. “تاكسي جداد التعاوني”.. “جداد للتبغ والعماري الأصلي”..

وتأكيدا على جديته التجارية شنَّ جداد على الجمهور حملة إعلانية تلفزيونية عرضا لمنتجاته الطبية على وجه الخصوص، ولاحظ بعض المراقبين، مدى استفادة جداد من اعلانات الفياجرا والليفيترا. لم يترك جداد شيئا يتم استهلاكه يوميا، لم يضعه ضمن مشروع مجتمعاته الاستهلاكية! ورغم هذا اليسر الذي جاءه من وسع، لم يرحل جداد من سكنه القديم، فالرجل مشهود له بالوفاء للتاريخ والتراث الجلابي العريق!

شهد مسكن جداد الفاره دونا عن كل مساكن جلابي ود عربي، توقف العربات الأمريكية واليابانية الفارهة أمامه بالساعات الطوال.. كان زواره يأتون في هذه العربات من مختلف أنحاء المدينة الريفية والبلاد الكبيرة، خاصة حاضرتها.

كانوا رجالا أنثويي الملامح.. طبيعة أصواتهم عندما يتكلمون وطريقة المشي “المتفدعة” عندما يترجلون عن عرباتهم الفاخرة.. وتأنقهم في ثيابهم الزاهية وأجسامهم اللامعة “النديانة” وكل شيء فيهم انثوي، الأمر الذي أزعج أدروب فسأل أحدهم:

“وجهك مالو ناير كدي؟! ”

فرد عليه:

“سيماهم في وجوههم”

فقطع أدروب الحركة، كأن أحد الأمطار الغزيرة “صبت” عليه لحظتها!.. في هذا الوقت كان جداد قد نقل الجامع من موقعه القديم وأكمل بناء الجامع الجديد في موقع آخر. أثبتت الأحداث فيما بعد أنه اختاره بعناية منقطعة النظر، ونصّب نفسه إماما عليه (ومأموما كذلك أغلب الأحيان!! إذ توقف الكثيرون عن إرتياد الجامع، الذي أصبح اسمه “جامع جداد” بدلا عن إسمه القديم “مسجد جلابي ود عربي العتيق!”..

في لحظة سابقة لهذه اللحظة (هي اللحظة التي سافر فيها جداد للأراضي المقدسة) وفي غيبته انطلقت كثير من الشائعات حول أعماله المرئية! لكن الشائعة التي انطلقت من مجالس النساء، كانت مختلفة عن الشائعات الأخرى، عن علاقاته وأعماله! مفاد الشائعة أن جداد يرتبط بعلاقة مثلية مع أدروب.

بالطبع وصلت هذه الشائعة إلى مسامع الأهالي، فأعدت إلى أذهانهم شائعة سمعوها في الأيام الأولى التي جاء فيها جداد وأستقر في جلابي..

مفاد تلك الشائعة أن جداد منذ نعومة أظفاره وهو جزء من كيان العرافين، متشرب بأفكارهم، ولذلك ارتقى داخل صفوفهم، وظل يرتقي إلى أن اكتشفوا بالوثائق والإثباتات، أنه نهب مبالغا ضخمة دون أن يعثروا لها على أثر، فواجهوه وطردوه من كيان العرافين، ولم يُظهر جداد سوى الفقر والحاجة، ولم تبد عليه علامات الثراء أبدا! وضرب في أنحاء البلاد المختلفة، إلى أن طاب له المقام في جلابي، ومن ثم بدأ يظهر عليه الثراء تدريجيا!

بعض الأهالي وقتها كانوا لديهم رأي مختلف، يتمثل في أن ما تم من قبل العرافين تجاه جداد، هو مؤامرة لإقصائه بسبب مثليته،

بينما مضى آخرون للزعم أنها مؤامرة مثل كل المؤامرات (“فالسياسة مؤسسة أحقاد منظمة كما يطيب لعلمانيي جلايي التعبير”) فالمؤامرات من هذا النوع تحدث في مثل هذه الجماعات، بسبب الصراع على النفوذ والسلطة والثروة!

والبعض الآخر من “أهل التقية” في جلايي هز رأسه ولم يعلق بسوى:

“أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم - أحفظنا وارحمنا يا رب وول علينا من يصلح!”.. ما دفع بعض الخبثاء للضحك وهم يتحسسون مؤخراتهم في اطمئنان وغبطة!

وعندما تهامست النساء وهن يلكن الشائعة، أطلت الشائعة القديمة برأسها مرة أخرى وطففت على سطح أذهان الأهالي! الذين سارعوا بابتلاعها مثلما ابتلعوا ما سبقها من شائعات، دون أن يحاولوا الجهر، خشية أن يرسلهم الرجل وراء الشمس.

فالرجل أياً كان الأمر يبدو أن العرافين أعادوه إلى صفوفهم مرة أخرى، وقاموا بتمويله وأصبح صاحب نفوذ كبير، فثروته لم يجنها من الدجاج فحسب، وما الدجاج الا ستار يحجب به مصدر ثروته الحقيقي! ويُخفي به أنشطته غير المرئية (لوحظ أن جداد منذ أطلق مشروع جمعياته لم يعد يتحدث عن حُرمة السجائر أو عذاب تارك الصلاة على الإطلاق!)

كان إيمان الأهالي لا حدود له بأن لجداد علاقات متشعبة، مع العرافين والطائفيين وما إلى ذلك من شاكلات.. وقتها كان العرافين قد انقسموا إلى قسمين: قسم ضد أبو لكيك الجنكويزي والآخر معه!

ولم يتنفس الأهالي عملياً، وأخذوا يضايقون جداد علناً في بعض الأحيان إلا بعد هذا الانقسام المرع للعرافين، الذين أدركوا بعده

بوقت ليس قصير، أن له تأثيراً كبيراً على نفوذ وسلطان جداد!
التغييرات المهنية التي حدثت في حياة جداد، جعلت تجار
"الكناتين" في جلالي يحسدونه سرا، بينما يجهرون رياء:
"ما شاء الله.. اللهم زد وبارك!"..

هذا كان في البداية، إذ لم يقووا على كتمان ما في صدورهم، فأخذوا
يجاهرون بهذا الحسد. الأمر الذي كان يستدعى دائما تدخل جمال
الحلة.. ليس لأنه من الذين أخذوا يتقربون لجداد، بل لأنه عرف
بالمباشرة اللادعة والتلقائية المرّة، التي لا تجتهد في تدويق الكلام!
الأمر الذي جعل الناس يختلفون حوله، فمنهم من ينظر إليه
كمجذوب و"بركة" حتى أن هؤلاء نسجوا حوله كثير من الأساطير.
ومنهم من ينظرون إليه كمحتال يصعب الوثوق به. ولولا علاقته
الوطيدة بعبد الرحمن العوير وكسبان الضاوي، اللذان يجمعان
كلاهما بأنه:

"راجل بركة"

لما تركوه يضايقهم، ولردوا له الصّاع صاعين! فهم يخافون لعنة
عبد الرحمن ود التّوم، التي رأوها بأمر أعينهم بينة في بيت أم التيمان،
عندما تعاركت معه. فلم تمض سوى دقائق قليلة، حتى اشتعلت
النار في بيتها!

فجاءت وركعت تحت قدميه تطلب السماح ولم تنهض إلا بعد أن
قال لها:

"أنا مسامح. قومي. اذهبي يا أمة الله!"

كما أن كسبان الضاوي على سخريته المريرة التي توغرا الصدور! كان
عملاقاً، ولذلك لا يجدون مناصاً من كظم غيظهم!!..

XI

هل تحزن ثريا لو كانت لا تزال على قيد الحياة؟ هل تحزن في آخرتها الغامضة، إذا عبر بها هذا الكلام؟ أو حملته لها سحابات الغيوم الآن؛ بعد أن تعبر بوجهي إليها؟!

هل سيغضبها في آخرتها إذا نقله لها ملائكتها الكروبيين.. أو عبرت به، مرهقة من وعثاء التخاطر؟!

ثريا المراهقة داكنة البشرة، التي عبرت على حياتي في لحظة فاترة و مالحة فتور وملوحة ماء الآبار! لا تروي ظمأ! فبقيت مستمرة كأغرب لحظة حاسمة في حياة انتقالية بين الصبا والمراهقة!

من أين جاءت بهذا السحر الجبلي، الذي وسماها بحيوية الطقوس البدائية؟ في ثريا كانت تلتقي جبال النوبة، بغابات الإستواء في قلبي الناهض في دار الريح و النيل، ليشكل الملتقى شرياناً، يتخلل كل نواحي جلابي ود عربي.. فيسمع همس القش تحتك به الريح! ويتحسس الدخان المتسلل البيوت المهترزة!

كيف نفذت هذه الصبية اليانعة إلى قلبي فتوحدت به.. مبتعدة عن هذا الظمأ.. مختبئة في أحد كهوفه.. كهف مثل كهوف أسلافها الذين أدرکہم الحب، فطاردوا الغزالات في رحلات الصيد، ولم يعودوا أبدا! تتركني الآن تتخطفني الطير ووحوش الفلاة!.. فلاة جلابي ودعربي..

ما أدرکه الآن تماما: أنني أعطي هذه البرهة الشاهقة، لأنظر من فوقها إلى ذلك العالم التّحتي.. السّري، الذي أنقب فيه ببصري وأحاول أن أتفادي تلك الروائح الزنخة البعيدة، التي وسمت بعطنها أزقة وُجُدُر جلابي ود عربي..

تتخلل البيوت القش والطين اللين والدروب الضيقة المتسخة
بالروث وبقايا أكياس الورق والبلاستيك، والعُلب الفارغة!

أحاول ملامسة هذه الروائح الآن. من هذا العلو الشاهق لأكشف
ما أختبأ خلفها من أفئعة للناس والمكان وكلاب السكك التي لا تهدأ!

كانت ثريا في مثل سني.. أهتم أبي لأمر شقيقها خميس الذي يكبرها
قليلا، وألحقه بالمدرسة. فكنا ثلاثتنا: أنا وهو وحسن - بعد انقضاء
اليوم الدراسي، "نترادف" على دراجتي الفليس إلى أن نصل إلى جلاي.

وقتها كانت ثمة شائعة قد إنطلقت، مفادها: أن المجهود الجبار
الذي بذله والدي، كيما يتم قبول خميس في مدرسة المدينة الريفية،
جاء من اهتمام أبي بالسرة والدة خميس؟! و ليس حبا في عمل الخير
(كما ظل يزعم) وهو يقوم بتسويق نفسه كرجل صالح!

لا أدري لماذا تم نبش هذا الأمر في ذلك التوقيت بالذات، على
الرغم من مضي عدة سنوات منذ أدخل أبي خميس المدرسة!

لم يكن أبي يمانع علاقتي بخميس.. هو الذي كان يمانع أن تكون لي
أي علاقة بأي شخص من شخوص جلاي!

أكد لي صديقي حسن، وقتها:

"والدك على علاقة بأم خميس.. هذا مؤكد"

فضحكت ولم آبه للأمر. وربما لهذا السبب الذي زعمه حسن.
تسامح معي والدي عندما جاء إلى الدكان على نحو مفاجئ وضبط
ثريا تحاول اغرائي بمفاتنها الطازجة المتدفقة!

رأها تحسر فستانها القصير البالي عن فخذيهما، وتعرض صدرها..
وبعد أن انصرفت مأخوذة، كنت زائغ العينين ومرتبك.. اكتفى
بتحذيري و تخويفي مستخدما لهجة شديدة لم ألفها..

كانت ثريا تقتنص الأوقات، التي يكون فيها أبي غائبا والدكان خال من الزبائن، فتقف في مدخله وتكشف لي عن فخذها وصدرها الذي أأكمل نمو ثمريته للتو!..

فتشعل في داخلي حمم وحرق، تجعلني خائر القوى، لا أقوى على الوقوف. كأن شياطين الجحيم تلهو في عروقي، وهي تطلق ضحكاتهما العابثة! التي تتوحد مع ضحكة ثريا، فيشكلان معا ضحكة واحدة.. متحدة ومتوحدة مع الفراغ العريض لفضاءات جلالي ود عري.

في الأوقات التي يزدحم فيها الدكان بالزبائن، وتلامس أذني أحاديثهم عن ثريا. كنت أشرع أذني على وسعهما، حتى تكادان تتشربان بغيبة الزبائن لثريا وميمنتهم.. فأهالي جلالي:

الغبية والنميمة، لا تطيب لهم إلا عندما يصادفون بعضهم أمام الدكان لشراء غرض من أغراضهم. ومثلت هذه الغيبة والنميمة مصدراً أساسياً من مصادر معرفتي بأحوال جلالي وحكاياتها ومصدرا يكاد يكون معتمدا من قبلي حول ثريا والأمور الملوحيّة، التي لا تخلو من اغراء خفي. أو الداعرة العاهرة “الفاجرة الصغيرة” كما عرّفَتْها نميمة الزبائن وأغتياباتهم!

رهما شكّل الزبائن في داخلي ثريا كاغراء محض.. اغراء فاتن ومفتون بالعبث.. ولذلك حاولت بدوري، إغراءها على إقامة علاقة معي، لتطلعني على معارفها الواسعة، التي شدّنتني إليها أحاديث الزبائن.

تلك المعارف الغامضة عن ذلك العالم السّري، الذي كنت وقتها لا أعرف عنه شيئا!!!.. كما كنت أرغب في خوض التجربة لأفهم معنى الحرّقان الذي أحس به يتخللني مفصلا، مفصلا فيجعل اسفل ظهري وسلسلتي الفقرية، راعشين كالمصابين دون سائر جسدي بالحمى “الراجعة!” لكن ثريا لم تتح لي هذه المعايشة أبدا، فظلت كمدينة مفتوحة لكل الغزاة دوني!

كانت تكتفي بتعرية فخذها أو صدرها، أو تعريتهما معا ومضي،
مخلفة وراءها تلك الضحكة العجيبة، لتحاصرني بدوامات أصداءها،
التي لا تزال ترن في طبلة أذني حتى الآن رغم انقضاء كل هذه السنوات.
لا أدري لماذا كانت ثريا تعاملني بهذه الطريقة.. تصرفاتها كلها
كانت تدعوني إليها، لكن ما أن اقترب منها حتى تهرب! تساهلت
مع الجميع إلّا، كأنها تقصد استثنائي عن عمد، على الرغم من أن
الشائعات التي تم إطلاقها حولي في جلالي دمغتنا بأننا على علاقة
حميمة!

بل وحرص زبائن الدكان على التلميح أو التصريح لي بذلك مباشرة،
كلما سنحت لهم الفرصة! خاصة عندما يستأوون، من أسلوبني في
مبايعتهم، أو رفضي بيعهم شيئا بالدين! أو التصريح مباشرة، تنفيذًا
لقرارات أبي الصارمة: “الدين ممنوع والزّعل مرفوع”.. وكانوا عندما
يصطدمون بجدار اصراري، يخاطبونني بوقاحة:

“لو كانت ثريا لكنت دينتها”

أو يلمحون:

“ثريا ما شايفنها اليومين دي.. مشت المدينة تسترزق ولا شنو؟!”

فأكظم غيظي ولا أنبس بينت شفة. كنت مشدودا إلى ثريا بقوة
خفية، خارقة لا أملك إزاءها شيئا! فلم أكن أقوى على التحكم في
نفسي كلما رأيتهما، إذ تتهشم كل القرارات، التي أكون قد أصدرتها
سابقا للتحكم في تصرفاتي لحظة مجيئها!

لم أكن أمنع عنها شيئا تطلبه من الدكان، وكلما زاد امتناعها عني،
كلما أصدرت مزيدا من الفرمانات والصكوك بحق نفسي، وكلما زاد
هشيم القرارات والصكوك تحت قدمي ثريا! إذ كانت رغبتني فيها
تشتد.

حتى أن السبب الأساسي لتسليبي لبيت أم التيمان، كان بسبب هذه الرغبة القوية في استجابة ثريا كانت استجابتها، تعني لي الكثير، ففكرت في الانتماء إلى عالمها، علّه يكون مدخلا لهذا القبول. وتمهيدا لاستجابتها التي كنت أضع الكثير من الخطط في سبيلها. فبسبب ثريا أصبحت مغرما بقصص الحب وأشعاره، عل الصولات والجولات التي بيننا تهدياً، ويتوقف الكر والفر!

لكن ظلت علاقتنا معارك متصلة، فما أن خرجت من دائرة التاريخ المدرسي وسّير العشاق حتى أخذت أقرأ لأجلها المذكرات التي كتبها قادة أو معارف لهؤلاء القادة، عن حياتهم العاطفية أو الجنسية، أو شعراء جنوا أو ماتوا كمدا! فقرأت بنهم كل ما وقع تحت يدي!

ورغم صغر سني كنت كالفأر أقرض المعلومات أفهم بعضها وبعضها لا أفهمه، أحاول إعداد نفسي للمعركة الكبرى، أم المعارك، أضع الخطة تلو الأخرى وفي كل مرة أحذف منها تفاصيل وأضيف أخرى، فتسقط الخطة لحظة مجيء ثريا، وأصبح مرة أخرى بلا خطة! حتى يئست وشعرت أن كل الذين قرأت لهم قد خدعوني، خدعة لا يمكن التسامح معها. فكرهت هذا النوع من القراءات!

وأصبح كلما سمعت أحدهم ينطق باسم نزار أو روميو، ينتابني شعور قاتل بالغثيان، والحاجة للاستفراغ!

لماذا كانت كل خططي تنهار تحت قدمي ثريا؟ ظل هذا السؤال يحرق ويستبد بي لوقت طويل. أول مرة أدخل فيها بيت أم التيمان، كنت غاضبا فقد رأيت ثريا قبلها بلحظات، تخرج وهي تجرجر رديها المثيرين، من بيت أدروب في تعب لا تخطئه العين!

كانت تتلمس بين آن وآخر أسفل مؤخرتها، وكأنها تتلمس جرحا، وكان الشارع خاليا، إلا منا الاثنين. لم تكن تراني، في نهايته عند إحدى الزوايا.

حيث مكثت أراقبها إلى أن غابت في الدرب المفضي إلى حيث تسكن!
شعرت لحظتها بنوع من الغضب. الذي لم آلفه من قبل
يجتاحني، فقصدت بيت أم التيمان التي حاولت إخفاء دهشتها فلم
تفلق، فسألته بعد صمت طويل:

“في شنو؟!”

“عاوز أشرب”

أمعنت النظر في وجهي طويلا وهي ترمي مزيد الحلبي، الذي كان
يجلس وقتها وهو يخرج يده من “جردل” المريسة، الذي شارف على
الانتها، بنظرة تحذير حاسمة، ثم أردفت:

“تشرب شنو؟!”

“عرقى”

“أنا لا أعمل العرقى.. وأنت صغير علي العرقى”

“طيب مريسة؟!”

فضحكت:

“المريسة بيشربوها في النهار”

فأشرت إلى مزيد الحلبي، الذي كان قد أتى على كل ما تبقى في
جردل) المريسة الذي أمامه! فقالت بسرعة:

“دي كانت آخر مريسة؛ لكن عندي كانجي مورو مخصوصة.. شراب تلاميذ”

أخذت أتلمظ طعم السمسم والسكر في “الكانجي” و شعرت
بخدر لذيذ يسري في عروقي، وأخذت كل التغضات التي اعترت
وجهي ترتخي. و ملامحي تبدأ في الانبساط!

كانت حدة الألم الذي خلفته ثريا قد بدأت تخف.

الفصل الثالث

I

ذلك الاحساس الذي دفعني لدخول بيت أم التيمان وشرب الكانجي.
ربما ما يشابهه هو ما دفع رياك إلى أن يدلي لي بآخر اعترافاته، عندما
التقيته في زيارته الأخيرة بهذا البلد، على رأس وفد رسمي رفيع
المستوى من وفود حركة الجمهورية الثانية.

التقيته مصادفة في غاليري الأوبرا، في جناح النحت والتشكيل
الأفريقي. كان واقفا مع أحد التشكيليين الأوغنديين، الذي كان يحدثه
عن إحدى اللوحات التي وقفا أمامها.

وضعت يدي على كتفه و أخبرته أنني أتابع التطورات التي تحدث
في البلاد الكبيرة، وجلاي ود عربي، على نحو خاص. وذكرته بنفسه.
فاحتضنني وأخبرني، أن حركتهم ستشكل مع حكومة الجنكويز حكومة
وطنية للمرة الأولى في تاريخ البلاد الكبيرة منذ اعلان الجمهورية الأولى
قبيل مغادرة الإنجليز بقليل!

ثم اعتذر للفنان التشكيلي ومضى بصحبتني، إلى مقهى وادي النيل
المطل على التحرير.

II

كان صوت رياك عميقا لكنه حيويا ودافئا. لم يكن كمن يجلس في مقهى عام. مطل على أحد شوارع القاهرة المزدهمة بالناس والفوضى والضجيج. كان كمن يجلس في بيته عند أطراف حلة جلابي ود عربي.

قال يحكي عن تلك السنوات:

“لم أقد إلى جلابي ودعربي وأضع عليها رحالي، في سياق التغيير لمكان كرهته.. لم يكن الغرض تجديد المكان وحياتي المرهقة. فجلابي ود عربي البائسة، لم تكن مكانا، أمثل لتجديد الحياة والعلاقات، لكنها كانت مكانا مناسباً لي للاختباء، من عيون الأمن الإيجابي والاستخبارات. وزوار الفجر وكل أجهزة الجنكويز المتربصة، لذلك تخلصت من شخصيتي الحقيقية شخصية كمرد لادو وانتحلت شخصية أخرى هي شخصية رياك.. الشاب العشريني النكرة، بوجهه النحيل و ثيابه المتسخة الرثة، ووجهه الذي يبدو عليه الخمول.

رياك الذي لا يشعر بوجوده أو غيابه أحد، ولا يخلف عبوره أمام الناس أي أثر! لا يشعرون به، ولا يذكرونه إلا لماما!

واخترت لنفسي مكانا قصيا في الأطراف النائية من جلابي ود عربي. بعيدا عن بيوتها المتلاصقة، كأنها تخشى جرافات المجلس البلدي. التي تهددها بالزوال في أي لحظة.

في هذا المكان شيدت بيتي الفقير. من القش والقنا والحطب وزربته بالشوك.. شيدت قطيتي “زهر التور” وجعلت لها بابا متينا. فمن هذه “القطية” كنت أنطلق في تحركاتي السرية.

تقمصت شخصية رياك لوقت طويل دون أن يتمكن أحد من

اكتشاف هويتي، أو ينتبه إلى أنني لا زلت موجودا بقطيتي أم غادرتها إلى مكان ما. حتى عندما كنت أغيب لأيام وأسابيع، لم يكن أحد يشعر بغياي، إلى أن حلَّ حسان جداد بالحلة، وبدأت سلطته تتنامى على نحو غريب!

فمنذ اللحظة الأولى، شعرت إن كان هناك ثمة خطر يهددني، فسيكون من جهة هذا الرجل الملتحي. كان جداد يعتمد التقرب مني بإلحاح مزعج! ويحرص على إلقاء السلام عليّ وإيقافي لتجاذب أطراف الحديث، كلما رأي.

وكنت أسمع صوته أحيانا يناديني من خارج قطيتي، التي أحرص على إغلاقها عليّ. ولا أرد عليه فيبأس ويرحل معتقدا أنني غير موجود! أو معتقدا أنني موجود ولا أرغب في السماح له بالدخول! ربما كان الرجل، يرغب في توليف قلبي على دينه.. وربما كان له هدف آخر. وفي كل الأحوال كنت حذرا تجاهه!

لم يكن يسكن بجواري أحد. إلى أن فوجئت ذات يوم بأدروب، ينقل قطيته من الطرف الآخر لجلاي ود عربي الى جواري.

ولمعرفتي المسبقة بكل شبكة العلاقات داخل جلاي، أدركت أن خلف هذا الأمر ما خلفه، فأدروب من القلائل المقربين إلى جداد.

وهكذا تصورت أن جداد دفعه إلى تغيير مكان سكنه لمراقبتي عن كذب، وإلا لما ترك أدروب كل الفضاءات الواسعة في جلاي، ليزاحمني بالجوار. لم يزعجني الأمر كثيرا، فقد علمتني تجربة الصراع المسلح، أن العدو الذي أمام عينيك وتعرفه، خير لك من عدو مجهول لا تعرفه!

فكرت كثيرا في التخطيط لأمر ضد حسان جداد، يشعل غرابة أطوار هذه الحلة، إلى أقصى مدياتها! وكنت قادرا على ذلك. فقد كنت أعرف عنه الكثير. ابتداء من طرد والده له من البيت، بسبب

نزوعه الجنسي المثلي، ما دفعه إلى مغادرة المدينة الريفية، حيث انقطعت أخباره وصارت، مجهولة تماما.

“مكتب معلوماتنا أفاد أنه في الفترة التي اختفى فيها كان قد انضم إلى حركة مسلحة في دار الريح”
قال ريك. ثم أضاف:

إلى أن عاد مرة أخرى للظهور بعد سنوات طويلة، على نحو مفاجيء، في حلّة جلاي ود عربي.

أزمته مع أسرته، التي لم يعد إليها إلا بعد وفاة والده مخلفا وراءه أسرة مفككة مكوّنة من ست بنات، فالولد الوحيد حسن كان بصلة معفّنة! على الرغم من إستئصالها.. ما تركته وراءها من أثر قضى على بقية البصل! الأمر الذي حاولت إزاءه شقيقته سلمى أن تنجو بنفسها، فأغتربت.

علمت كل ذلك من مكتب معلوماتنا، الذي أضاف أن حسان جداد، كان أحد العناصر الثانوية في تلك الحركة المتمردة، إلا أنه مع ذلك أسهم في تدميرها بالتآمر لصالح نظام ابو لكيك الجنكويزي! كنت أفلت من مراقبته بسهولة، وكثيرا ما فكرت في مجابهته، لكنني تراجع لإدراكي، أن المواجهة ستتطور، وقد تصل إلى حد تصعب السيطرة عليه، فيؤدي إلى الكشف عن حقيقة هويّتي، خاصة أنني كنت مشغولا بأمور أكثر أهمية، تتعلق بالانقسامات العسكرية والمدنية في “الصعيد” للدرجة التي أصبح فيها طلابنا في الجامعات متنازعين الولاء، ما جعل نشاطهم وفعاليتهم تتضاءل.

كنت مشغولا بهذه الانقسامات التي سببتها اختراقات حكومة الجنكويز ونزعات البعض المدفوعة بضيق الأفق و الرغبة في الزعامة، والتي ترتب عليها أن نجحت حكومة الجمهورية الأولى في التوقيع على

اتفاقات مع عدد من الفصائل، معزل عن الحركة الأم وجيشها.
أطلقت عليها اتفاقات “سلام من الداخل” وكوّنت من هؤلاء
وأولئك المنقسمين الذين وقعوا معها على اتفاق مجلسا تنسيقيا.
ورمت إليهم بعض فتات السلطة التي ما لبثت أن انتزعتها من
أفواههم الجائعة!

كان دورنا الذي كلفنا به شاقا ومعقدا، فقد كنا نرغب في إعادة
هؤلاء إلى صفوفنا وتوحيد جهودنا، وفي ذات الوقت كنا نخشى أن يكرروا
فعلتهم! على نحو ما إذا نجحنا وأعدناهم إلى الصفوف مرة أخرى.
كنت مهموما بالإجابة عن سؤال كيف أسهم في “لملمة” ما تبقى
من أطرافنا دون التسبب في أضرار!

في هذا التوقيت بالذات، أعلن حسان جداد حملته الانتقامية
المقدسة ضدي، فقد تسرّبت إليه معلومات خاطئة، لا أدري من أين
جاء بها.. ربما تكون من بنات تجلياته النادرة!

مفاد ما جادت به بنات أفكاره أنني بصدد التمهيد لجماعات
التبشير المسيحي، حتى يتمكنوا من “تنصير” أهالي جلابي ود عربي
الفقراء، باستغلال حاجتهم! وهو أمر بدى لي غريبا!

وفي واقع الأمر لم أكن يوما من المهتمين بشئون العقائد والديانات،
فلطالما اعتقدت أن الدين شأن خاص بالفرد، وأن الوطن للجميع،
بمختلف عقائدهم!

كان بإمكانني القيام بهجمة مرتدة، وفضح التاريخ السري لجداد،
والذي بعضه موثق بالمكاتبات والصّور!

والتي استوقفتني فيها، ما بدى واضحا من ارتباط لجداد بجماعات
دينية وطائفية مختلفة ومتناقضة، وإذا تم ترتيب هذه المعلومات في

السياق الصحيح، نستطيع أن نستنتج أن جداد عنصر اختراق في القوى الدينية المختلفة، التي عبر تاريخها، لا اتفاق بينها حول (معنى) الإسلام!

وأيضاً كانت هناك لجداد صور في أوضاع حرجة! تكشف عن الجوهر الأخلاقي للمشروع "الحضاري" الذي طرحه العرافين الذين يتبعهم!

بالطبع لم أستخدم أي معلومة مما اعرف ضد جداد. لقناعتي أن السلوك الشخصي، يجب ألا يكون أداة للصراع السياسي، ومن جهة أخرى كنت أعتقد أن هذه إنما معركة جانبية، تأخذ ممن يخوضها أكثر مما تعطيه له!

كما تصورت وقتها أن أي معلومة من هذه المعلومات، قد تقود إلى مصدرها الأساسي - أنا! وآخر ما كنت أفكر فيه هو معركة تكشفني! فذاك ما لم أكن بحاجة إليه على الاطلاق.

III

تلاشى صوت رياك في الفراغ، وأنا أسترد ذاكرتي لأعبر بها إلى حيث لا أدري، فقد تداخلت الحقائق مع الأوهام والأحلام والانتقالات المتكررة من مكان إلى آخر بمجرد أن أسلم نفسي لسلطان النوم، فبت لا أعرف بالضبط هؤلاء الذين يقفزون إلى ذاكرتي يلهون فيها ويمارسون حياتهم، ويدلون باعترافاتهم ويحكون عن جرائمهم الصغيرة وجرائمهم الكبيرة. هكذا دون أن يطرقوا باب الذاكرة أو يستأذنوا.. يقفز كرتون. تقفز السرة. واقف أنا بينهما أحرق في هذا السقط من الأفكار المتراكمة على عتبات الذاكرة. وهي تتشكل لحما ودما.. يصرخ ويبيكي ويضحك ويأسى ويرتاع..

وبين أحاول تفهم هذه الخواطر الجياشة، فأسال كرتون:

“ما الذي رمى بك إلى جلاي ود عربي؟!” فيحرق في قلب عيني.. يقلب بصره داخل الجفن فأشعر بحرقان في المقل.. ألمسها.. أنتزع رموشا دخلت خفية.. أبعد الرموش المتساقطة، وأمسح العين المحمّرة.. فيتهد كرتون ثم يأتي صوته عميقا كالليل البهيم:

“رما تندهش إذا أخبرتك أنني فعلا لم تربطني بالسرة علاقة كالتي تصوورها البعض، حتى والدك!

واقع الأمر كنت كعابر سبيل، أو ضيف.. موجود ولست موجود.. بمعنى لست جزء من حياتها الخاصة كما أشيع..

رما لا تصدق أن كفي لم تلامس كفها سوى مرات معدودات، وحتى في هذه المرات لم تكن ثمة رغبة أو شعور بخصوصية الملامسة أو حميميتها.

كانت مرات خالية إلا من الأحاسيس العامة، التي يصافح بها أي شخص، شخص آخر يعرفه معرفة عامة و يلتقيه في مكان عام.”

“كل ما بيني وبين السرة يا علي كان عاديا تماما وعاما. بدأ لحظة جئتها ذات ظهيرة حارقة، وسألتها السكنى معها. فنظرت اليّ مليا، وهزّت رأسها دون تردد.. هكذا تمّ الأمر.

وافقت في صمت فنشأ كل ما بيننا في الصمت! وافقت دون قيد أو شرط. كما أنني كنت سأسحب سؤالي لها إذا اشترطت على أي نوع من الشروط، أو أبدت رغبة ما على سبيل الضغط عليّ.

ربما لا تصدق أن ما أقوله لك الآن هو بالضبط ما كان بيننا، لكن يجب أن تصدق! لأن تلك هي الحقيقة الوحيدة في الحياة الزائفة للسرة بنت عرجون! التي حتى يوم غادرت جلالي ود عربي، لم أرى غرفة نومها ولم تتنابنى أي من الرغبات الحميمة تجاهها!

مثل الآخرين كان بإمكانني بناء بيت لي في أي من الفضاءات الواسعة لجلالي.. أسكن فيه وحدي دون قلق ابنها خميس وثريا. دون الرغبات المدفونة والمعلنة للسرة بنت عرجون.. دون أن أضطر لرؤيتها أو رؤية ابنتها في أي من المواقف المحرجة العديدة التي رأيتها عليها، مع آخرين من رواد بيتها.

كان بإمكانني أن أمضي للسكنى وحدي. لكنني لم أفعل. فقد خشيت الوحدة طيلة حياتي. تلك هي مشكلتي التي جعلتني أهجر بيتنا الكبير في المدينة الريفية، وأهجر أشقائي وشقيقاتي”

قلت متهكما:

“ما هذا التناقض، تقول الوحدة؟! ”

“ما الذي تعرفه عن الوحدة؟! ربما لا تزال صغيرا على هذا الشعور”

قلت ساخراً:

“لقد قرأت كثيراً من الكتب.. ولدي نظرية قد تبدو غريبة،
إذ أزعج أن للإحساس بالوحدة دور في تأسيس التنظيمات وحدوث
الانقلابات وقيام الثورات!

أن تضع نفسك في قلب الحدث، لتهزم الوحدة ينبغي أن تجد
لنفسك دوراً وسط الناس ذاك هو التناقض”
وابتسم كرتون ابتسامة مائة دون طعام أو لون أو رائحة:

“ربما فسرت ما قرأته من كتب خطأ.. الوحدة أمر مختلف.. أنها
قاتلة.. تعوق التطور الإنساني للبشر.. تعوقهم من فعل أي شيء! كيف
تستطيع أن تخرج الحياة من العزلة؟ مستحيل!”

ربما كانت الطريقة التي يرى فيها كرتون الأمور صحيحة. لكن
وجهة نظري أيضاً قد لا تكون خطأ. ففكرة الخلق والكون خرجت
من الفراغ، العدم.. مجرد إنفجار الضوء.. نتيجة الإحساس بالعزلة
والوحدة.. هذه الأقسام التي تدفع إلى التأمل فالتجلي كمادة!

قطع كرتون همس خواطري، فنظرت إليه في تردد، كأن صوته
ليس صوته:

“الشعور بالوحدة قاس ومعذب، كنفحان الصديد في الجرح القديم،
قد تصل إلى درجة استعذاب أكلانه، وتلك هي النهاية لحياتك كإنسان
يحب الناس والحياة ويرغب في أن يحبه هؤلاء الناس وهذه الحياة.
فكل ما يريده هو أن يكون جزء منهما. وينال التقدير والاحترام.

ربما تفكر أن وجود الإنسان بين أشقائه لا يستقيم وشعوره
بالوحدة، وهو أمر غير صحيح. فقد كنت موجوداً بينهم ومع ذلك
ظللت أشعر بوحدة قاسية.

كنت أراهم ينهضون في الصباح. يعد كل واحد منهم الشاي لنفسه.. يشربه أثناء استعداده للمغادرة إلى العمل.

نادرا ما يجتمعون حول مائدة واحدة. فكل من يشعر بالجوع يمضي لإعداد الطعام لنفسه. وفي الأوقات النادرة التي يجتمعون فيها يركزون الحديث على مثالب بعضهم البعض. يضخمون هذه المثالب، فيتحول الأمر كالعادة إلى معركة كلامية، ربما تفلت أحيانا لتدخل فيها الأيدي..

تفرغ الأخوات عذابات أنوثتهن المؤرشفة في متحف العنوسة! ويفرغ الاخوان أحباطاتهم وفشلهم في إقامة حياة أسرية تخصهم. بصوت متوحد كانوا يكرهون بعضهم، يتبادلون هذه الكراهية. يحملون فشلهم لبعضهم البعض..

هل كانت حياتي مع السرة على علاقتها هكذا، وجدت في السرة التسامح الذي افتقدته، فسامحتها بقدر ما سامحتني.. هي الغريبة عني.. بينما فشل أخوتي في التسامح مع بعضهم..
فمن أختار!؟

لقد أخترت.. ربما.. في نهاية كل شهر يأخذ كل منا نصيبه الشهري من الإرث الجاري: (إيجارات عقارات).. هذه هي الحياة التي كنت أعيشها لسنوات عديدة. حاولت أن أجد أسرة في العمل.. شغلت نفسي بالعمل. جرّبت كل المهن الحرفية، حتى أصبحت خبيرا في الحدادة والسمكرة، والتبريد والتكييف والميكانيكا والبوهية، وكل ما يتصل بالعربات.

لكنني لم أجد نفسي في أي شيء من كل هذا! إلى أن وجدت السرة ووجدت فيها ما ظلت أفتقده، منذ أول يوم دخلت فيه بيتها، وقبلتني بدفء وترحيب أسرين.

شعرت باهتمامها بي.. بحبتها وقدرتها على الغفران، ورغبتها هي
نفسها في الغفران! إذ كثيرا ما كانت تأتي لتبكي على صدري إثر كل
خطيئة.. فكانت رغبتني تزداد في أن أمضي ما تبقى من حياتي في هذا
الصفح.. هذا الدفاء: السرة..”

IV

خلعت تركيزي من صوت كرتون لأزرع ذاكرتي في ذاكرته، فأرى السرة بنت عرجون الأربعينية الجميلة، التي لم تفلح متاعب السنوات والإنجاب في هدم قامتها الممشوقة.

تتماهى ذاكرتي في ذاكرة كرتون. أسأل عنه السرة، فتحدثني عن متاهته وطيبة قلبه، والحنان الذي يملأ جوانحه ويفيض يغطي كل فضاءات جلالي، التي تصبح لحظتها بلدة وديعة حاضرة هنا.. غائبة هناك.. بين الضلالة والهدى..

يغطيها كرتون بقلبه الوارف المخضر.. يغطي شوارعها العطنة وأزقتها الضيقة وكلابها التي أخذت من طبع أهاليها الكثير.

كلابها التي لا تهدأ أو "تنهد" .. وناسها "العُزَّاز" في نظر أنفسهم.. وحيواتها السرية التي تنهض في العفن. ومغامراتها مع عربات "الكشَّة" ورجال المباحث ومجرمي المدن النائبة، الذين ما أن يحلون بجلالي، حتى يشعر الجميع باقتراب كارثة. تخبرني السرة:

"كرتون ذهب إلى السوق الكبير. ليحضر لي بعض أغراض الشغل.. لا أدري من دونه كيف كنت سأعمل أو أعيش"

"لا أحد تتوقف حياته على الآخرين. ستعيشين كما كنت تعيشين
دوما"

كنت واثقا أنها من دونه كانت حياتها ستستمر. لن تنتهي بها السبل لمجرد كونه ليس موجودا وليس جزء من حياتها.

حدثتني عن مساعداته لها ووقوفه إلى جانبها في سرائها وضرائها. وخاصة عندما تتعرض لكشَّة أو تسجن لأيام..

الغريب في كرتون: كأنه يمتلك قرون استشعار، فداًما تحدث مدهامة النظام العام لبيت السرة في غيابه! لم يحدث أن تم القبض عليه أو سجن! وكان هذا الأمر بالنسبة لأهالي جلالي بمثابة الكرامة من كرامات كرتون.

تتنهد السرة:

“إنه أكثر من والد لخميس وثرثيا”

كانت السرة في قرارة نفسها تحب كرتون، مثلما كان يحبها في قرارة نفسه، ذلك النوع الغريب من الحب نادر الوجود.. فالأمر ليس مجرد دفء أو كرم فياض، وقدرة مدهشة على العطف والحنان، كما كانا يعتقدان بسبب تهيب السرة الدائم منه هذا التهيب الذي جعلها لا تجرؤ على مصارحته، وجعله لا يستطيع التصريح بهذا الحب! السرة على عكس كرتون، كانت لديها قدرة فذة على إدراك طبيعة مشاعرها تجاهه، منذ أول يوم دخل بيتها، لكنها أدركت لسبب ما، أنها لا تستطيع الحصول عليه!

حبها له هو ما دفعها لرفض عرض حسان جداد، كما كان يطيّب لها أن تزعم لأم التيمان وست البنات، لكن في أعماقها كانت تخشى من الزواج من جداد على ابنتها ثريا، فلطالما لاحظت أن نظراته، كانت تأكل جسدها أكلا كلما رآها تعبر أمامه!

ومع أنها كانت لا تمنع إقامة ثريا لعلاقات؛ إلا أنها ما كانت لترتاح لهذه العلاقة بالتحديد. ولذلك عندما يخطر على ذهنها هذا الخاطر، تذعر في دخيلتها وتهمس:

“سجم خشمي. البنت وأمها؟! ”

كرتون نفسه ربما لأسباب إضافية خفية ذات صلة بالوضع

الاجتماعي لأسرته، وعناصر نشأته البعيدة.. ربما.. كان يدرك مثلما أدركت السرة، أنهما أصبحا بالنسبة لبعضهما كحبيبين أو زوجين كالأمنيات التي ربما لا تتحقق حتى في الحياة الآخرة.

كما أن السرة بحكم تجاربها السابقة استطاعت التكيف مع هذا الوضع. فهي ليست بكرا، ككرتون الذي لم يحدث أن أقام علاقة مع امرأة قط في أي مرحلة من مراحل حياته البائسة!..

والسرة في واقع الأمر لم تحط رحالها في جلالي لأنها هاربة من أمر ما. فكل ما في الأمر أنها مرت بحياة قاسية وتجارب صعبة.

إذ نهضت حياتها في اليتيم بمرارته، وأحزانه وأساه بعد أن فقدت والديها في سن مبكرة، فاضطرت للعمل كخادمة في البيوت. حيث تخدم وتأوي، وأحيانا تجد نفسها مشرّدة، لا تعرف إلى أين تأوي. وما أن بلغت سن المراهقة حتى مضت إلى المدينة المجاورة، وانتقلت من ممارسة الجنس مع مخدمها إلى ممارسته على نحو احترافي.

فعرفت تلك البيوت الواطئة في أطراف المدن، ومضت تعمل بلا هوادة، إلى أن أصابها داء الترحال فأخذت لا تقوى على المكوث في مكان واحد لوقت طويل.

المكان الوحيد الذي استقرت فيه لفترة طويلة هو جلالي. حيث أنجبت ابنها خميس وإبنتها ثريا، ففارقتهما ثريا مبكرا بسبب الإصابة بالسل.

كانت علاقة السرة بست البنات العثمانة من العلاقات المميزة والغريبة في آن، فالرباط العميق الذي جمع بينهما، يسم العلاقة بالتميز.

لكن الشائعات التي انطلقت لتوصيف هذا الرباط، كانت تبعث على الارتياح والدهشة. فقد عرف عن ست البنات العثمانة دونا

عن كل نساء جلالي، ومنذ وقت مبكر أنها سحاقية، حتى أن بعض الخبثاء كانوا يصيحون خلفها، عندما يرونها في الشارع:

“الضكريّة.. الضكريّة..”.. فكانت تلتفت إليهم وهي تطلق سيلا من الشتائم والسباب المقذع.

وإلى أن غادرت السرّة دنيا ست البنات، الى آخرتها الغامضة، تسبقها ابنتها ثريا بقليل. لم يعرف أحد سر علاقتهما المميزة أبدا.

في ذلك اليوم الذي فاجأت فيه أبي مع السرة، أدركت تماما حقيقة ما أكده حسن. فقد كنت حقا كالأعمى. الجميع يعرفون علاقة أبي بالسرة، إلا أنا. فقد كنت وقتها مأخوذا برصد وترصد علاقة كرتون بها.

في ذلك اليوم أصبت بما يشبه الصدمة، التي لا أدري:

“لماذا؟!!”

“فقد كنت شخصا أحب ابنتها؛ أو هكذا صورت لي مراهقتي؟!!”

هذا ما كان يشكل محورا للنزاع في داخلي لوقت طويل.. في محاولة لإيجاد تفسير لما شعرت به من صدمة لحظتها.. عندما قصدت منزل أم التيمان بعد رؤيتي لثريا تخرج من بيت أدروب.

شعرت بشعور مماثل لذات ذلك الشعور بالصدمة!

وجدت عند أم التيمان مزيد الحلبي (الحداد) نظر إليّ وكأنه يهم بقول شيء، لكن نظرات أم التيمان الحاسمة اسكتته!

ومنذ أول لحظة نشأت بيني وأم التيمان علاقة ناعمة، ليس لها إسم واضح أو محدد.

علاقة لطيفة تختلف عن تلك العلاقة التي نشأت بعد ذلك بيني وست البنات.. تلك العلاقة المباغطة الملتهبة، الغارقة في الدموع

والشجن، الذي جعلني أتعرف على عوالم لم تخطر لي على بالي من قبل، واستدعت اليّ عوالم من الزمن القادم في حياتي، فزللت مدينا لها بالتأمل والتفكير لوقت طويل.

كانت ست البنات العثمانة أجمل من رأيت من نساء، وأكثرهن مودّة وحميمية وعذوبة ودفء، فقد كنت صفر التجارب، وللتو بدأت الخطو من لحظة الصفر. ولم تخيب ظني في التعرف على هذا العالم الموسّوس، المجنون. فشملتني برعاية خاصة.

عندما أدركت ما كان ينقصني من معرفة من ست البنات، أخرجت لساني لكل كتب التاريخ التي قرأتها، وبعد أول تجربة في الليلة ذاتها، مضيت أجمع كل كتب التاريخ والمذكرات من أنحاء بيتنا المختلفة!

كومتها أمام الباب الخارجي.. أمام الباب تحديداً.. ينبغي ألا يدخل التاريخ بيتنا! أشعلت فيها النار! وانتظرتها إلى أن تحولت إلى رماد، فبُلت عليها بولا غزيراً.. وشعرت بأن عبئاً كبيراً كان يثقل على كاهلي قد انزاح!.. فشعرت بغبطة وحبور لا يحلان إلا على رجل سعيد.

صارت ست البنات العثمانة محور عالمي، أفكر فيها في كل لحظة.. أفكر فيها وأنا أذاكر.. أو انجز الواجب المدرسي، معالجا الأمور الكريهة إلى نفسي مثل النحو والصرف والرياضيات والكيمياء والفيزياء، إلى آخر هذه الأشياء العجيبة. كانت أم التيمان تجيئني على أهداف هاء السكت، متكئة على كسر همزة إن، فتتكسر كل الأساطير التي تعيد بناء نفسها داخلي قبل كل مبتدأ جملة مفيدة بطلتها نون النسوة! تخرج اليّ باستداراتها من نظرية الدائرة، فلا أرى نفسي إلا خطأ مستقيماً يسقط على نقطة الأصل.. من نظرية لامبي تجيء.. من الكوانتم.. كيمياء الحلول..

تنعش كل عناصر الكوّن الخاملة داخلي، فاحلق معها فوق قوانين الجاذبية.. فوق طبيعة البشر.. فوق كل شيء: ككوّن قائم بذاته بقوانينه الخاصة، التي لم يتوصل إليها العلماء و لن يتوصلوا أبدا.. أم التيمان.. أم التيمان.. هذه امرأة التعرف إليها يَمَلِك معرفة واسعة بالشأن الأزلي لقصة الكون: علاقة الذكر بالأنثى..

الأمر الذي يهجس كل العلوم، دون أن تنفك هو اجسها إثر كل اكتشاف لسر جديد من أسراره، التي للمفارقة معلنة، تضرب بجذورها في قلب التاريخ والطبيعة.

علمتني أم التيمان أن الاستمتاع بالحياة، يعتمد على قدرتنا على انتهاك القوانين.. إلى أي مدى نستطيع فعل ذلك دون أن نشعر بالخوف؟! فقد كانت امرأة من طراز خاص: امرأة لا تخاف. تعتقد أن المصابين بأمراض نفسية وأخلاقية مستعصية، هم وحدهم الذين يشعرون بالخوف..

“آه يا علي ربما بسبب شجاعتي أعاني ندرة الأحلام!”

وحدهم الذين لا يجروون على انتهاك القوانين، عكس الذين يدركون جوهر الحياة ينفذون رغباتهم دون أن يترددوا محاصرين في حُلْم الرغبة في تحقيق هذه الأحلام..

ووفقا لأفكارها عن الحياة، كنت مصنفا تلقائيا، ضمن المصابين بأمراض نفسية وأخلاقية مستعصية.. إذ لم أكن ميالا لانتهاك القوانين، كما أنني دائم الخوف من أن يتم اكتشاف علاقتي بها، بأن يتسرب الأمر إلى أبي أو أي من أفراد اسرتي، ولا أظنني في ذلك الوقت خرقت قانونا، سوى بعلاقتي معها، حسبما أذكر في هذه اللحظة فقط.

طريقة تفكير ست البنات العثمانة كانت تعجبني، وربما أسهمت هذه الطريقة في تعلقي بها لوقت طويل. كنت أغضب إذا تحدث

عنها أحد بصورة غير لائقة، لكن لا أجرؤ على التعبير عن هذا الغضب. وأكثر ما كان يغضبني إصرار البعض على كونها سحاقيّة، فأنا أعرفها أكثر من أي شخص آخر، مع أنني لا أستطيع الجزم، نظراً لغرابة أطوارها وتقلبات أحوالها.

أهالي جلالي ود عربي رغم حياتهم المديدة في هذه البلدة. ثمة أمور ليست لديهم معرفة كافية بها فمثلاً: كنت أعرف أن سلمى خير الله هي الشقيقة الصغرى لحسان جداد وليست مجرد قريبته التي تسكن المدينة الريفية، لكن لا أحد يعرف هذه المعلومة سواي. إذ سربت لها لي في لحظة ضعف أنثوي سلمى ذاتها بشحمها ولحمها، ربما بقصد إيذائها لشقيقها جداد، لكنها حرصت مع ذلك أن يبقى الأمر خاصاً، كسر بيننا فلا يعرفه أحد غيري.

كان ذلك وأنا في طريقي الى الدكان قادما من البيت، عندما رأيتها تقف في قلب الشارع المفضي إلى الدكان مع جداد. كانا يتشاجران. وما أن اقتربت منهما حتى ران عليهما صمت أخرجني وأربكني، ثم مضى جداد لا ييلوي على شيء.

اقتربت مني ومضينا معا باتجاه دكان أبي. لم أسألها. كانت تبكي وتتحدث من خلال نسيجها:

“لا تخبر أحد بما رأيت”

“أؤكد لك أنني لن أخبر أحدا؛ ثم أنني لم أر شيئاً! لم أرى أو أسمع شيئاً..”

هيمنت بدموعها على وجهي:

“إنه أخي.. شقيقي”

“من؟!”

“حسان خير الله. لا أريد فضحه أو أذيته”

“حسان جداد؟!.. إذن لماذا تحضرين إلى هنا؟!”
فصمتت ولم أَلحَ عليها. كنا قد وصلنا إلى أعتاب الدكان.

VI

نشأت متوحدا في العزلة والوحدة، اللتان لا تزالان تطبعان حياتي بطابعهما الموحش، لكن هذا الأمر ظل يريحني من مشاكل الاحتكاك بالناس.

فالناس عندما يتصلون ببعضهم البعض، تنشأ بينهم المشاكل بسبب المشاعر الدنيا كالغيرة والحسد، أو لسوء الفهم الذي يتم تصعيده سجالاتا فيتحول من الاختلاف إلى الخلاف (قطيعة) أو بسبب الالتزامات المتبادلة التي تنهض فيها مشاعر متضاربة ربما تفضي للاحساس بالخذلان، فالكراهية فالتأمر.

هذه العزلة تجنّبي التعرض لكل ذلك مما لا أحب. لذلك كنت كلما حطمت طوق عزلتي وخرجت اتصل واتواصل بهؤلاء الناس، أعود مرة أخرى لأضرب السياج حول نفسي!

لحظات الاتصال بالناس في حياتي لهي لحظات قليلة، لكنها مكتظة بالاستهداف والحصار. اللحظة الأولى: هي تلك اللحظة التي كنت أساعد فيها والدي في الدكان وهو ينتقل به في أرجاء المدينة المختلفة، فأول مرة قام بتأجير محل لتجارته، كان ذلك في الحي الشرقي، قريبا من شاطئ النيل الذي تنكفئ عنده المدينة الريفية، كشخص يتهيأ للاستفراغ.

تدهور هذا المحل بسبب علاقته المريية بمالكة العقار، فقد كانت زوجة سائق عربية حكومية محدود الدخل، تعمل في بيع الكسرة واللقيمات، وتؤجر جزء من عقارها كمحل تجاري.

في الحقيقة كانت امرأة جميلة وفاتنة، ربما خاطبت فيه أشواق

مجموعة، حفزته على الدخول في رأس مال تجارته.

ودرءا للفتنة والحرب التي أشتعلت في بيتنا، استجاب أبي لرغبة اخوالي وسلم صاحبة العقار محلها، وارتحل بما تبقى من بضاعته إلى الحي الشمالي، على مقربة من بيتنا.

وهناك حاول أن يلتقط أنفاسه ويسترد ما خسره مع الأربعينية الجميلة، عندها بدت جلالي كأفق استثماري واعد، أخذ بعض تجار المدينة الريفية يتحدثون عنه بحماس، فذهب أبي وتفقدتها ثم اختار مكانا، أصبح فيما بعد بمثابة القلب، شيد عليه دكان من الطين اللبن، ألحق به قطعة من القش والحطب و"الشارقن"، لم تكن نبؤات تجار المدينة الريفية قد جانبت الصواب، فقد أثبتت جلالي بمرور الوقت أن وعود خيالها الاستثماري لا تضاهيها وعود.

ازدهرت تجارة جلالي إذن، وتبدلت معها أحوال كثيرون، نهائيا وإلى غير رجعة. هذا الازدهار أشعل في نفس أبي الرغبات القديمة المدفونة، وأعادها إلى السطح مرة أخرى، فأقام علاقته التي طبقت شهرتها الآفاق!

تلك العلاقة الحميمة مع السرة.. ذاك هو الوقت الذي كنت فيه قد يئست من علاقة الكر والفر بيني وبين ابنتها ثريا، ولأنني كنت على شفا الدخول إلى الجامعة أصبحت غير مبال، للحلول محل أبي في الدكان أثناء غيابه، إلى أن انقطعت صلتني بجلالي تماما!

ما عدت اذهب الى الدكان إلا للضرورة القصوى، لكن ما أطلقته ام التيمان من مارد في عروقي دفعني، لارتياح بيت سلمى خير الله، الذي لم يكن يبعد عن منزلنا كثيرا.

كانت سلمى خير الله قد انفصلت عن السكنى مع شقيقاتها، وسكنت لوحدها منذ جاءت من غربتها في الخليج و استقرت نهائيا.

هي التي دعنتني بود لزيارتها، عندما التقينا صدفة في محطة
المواصلات. كانت ودودة معي، فتصورت في البدء أنها تكن لي مشاعرا
حميمية خاصة! كتلك المشاعر التي كانت بيني وأم التيمان.

لكن بمرور الوقت اتضح لي أنه لم يخطر على بالها أبدا مثل هذا
الأمر. فقد كانت على عكس ما يبدو عليها: عفيفة وكثيراً ما أتصورها
عندما تخطر على بالي كعذراء شقية، أو ذلك النوع من الحوريات
اللواتي يخطفن الشباب من "قيف" البحر، عندما يقعن في غرامهم.

لكن سرعان ما يعدن هؤلاء الشباب إلى حافة اليقظة مرة أخرى!
لينزلقوا بهدوء إلى حيث يؤسهم العريق. بعد أن تكون الحورية
المزعومة قد تلاشت في أعماق النيل.

هكذا إذن لم أستطع التفكير ولا مرة واحدة في سلمى خير الله دون
أن تكون مقرونة بخاطر أسطوري غير مكتمل التخليق.

أبرز ما أستطيع الجزم به الآن، أنها لم تكن لديها فكرة واضحة
عما تريد أو ترغب به!

كنت أزورها في بيتها في الأمسيات، واتسامر معها ساعة أو ساعتين،
ثم أغشى في طريق عودتي إلى بيتنا صديقي اللدود حسن، الذي كنت
أحرص على ألا يعلم شيئاً عن علاقتي بها، فقد كنت أتحفظ معه
حول كثير من الأشياء، التي اعتبرها أسراراً مقدسة.. لي وحدي فحسب!

وكان هذا الموقف بسبب ما تسرب إليّ، قبل زمن طويل عن عبده
الخال، و حكايا حسن في المدينة الريفية عن ثريا ومزاعمه بأنه خاض
معها كثير من المغامرات الجريئة من وراء ظهري!

ولأنني كنت أدرك جيدا، أن حسن نوع غريب من البشر. يحب
تلفيق المغامرات، وإضفاء منطوق مدهش على الأكاذيب، التي تشكّل
جلّ حكاياته، حتى في حكاياته عن تجاربه الحقيقية المتواضعة.

يستلذ بسرد نوع من الأكاذيب المفضوحة، إذ لا يحكي سوى أنصاف وأرباع الحقائق، ويعمد إلى تضخيم الوقائع الأحداث وتضخيمها، على نحو فانتازي يصعب تصديقه لدرجة أن أطلقنا عليه لقب (الكائن العجيب المدهش!)..

فحسن خصب الخيال، جميعنا كان يتنبأ له بمستقبل خيالي مشرق، وكنت أدرك أنه يحاول أن يعوض نفسياً إحساسه بالانتماء لأسرة مدقعة الفقر، لطالما كرهها في قرارة نفسه!

فأخوته العشرة الذين يعتبر هو خاتمة العنقود بينهم، لم يكملوا تعليمهم و عطالي عن العمل! تفرق بعضهم داخل وخارج البلاد الكبيرة، دون أن يحالفهم الحظ!

كما أن والده يسكن مع أبنائه الآخرين من زوجة أخرى، في مدينة ريفية أخرى، متاخمة لجلاي.

وجدت أم حسن رغم تقدمها في السن، نفسها مضطرة للعمل في الحواشات، حتى تتمكن من أن تعول هذه الأفواه المشرعة!

بسبب كل ذلك كان حسن كذاباً كبيراً. يحاول إشباع غروره الذكوري، كنوع من التعويض النفسي في جوانب حياته الأخرى.

حكى لي ذات مرة، أنه على علاقة حميمة بست ذكية الأرملة مديرة المدرسة التي كانت قد اشتهرت في أنحاء المدينة وضواحيها، بعلاقاتها المتعددة! بالطبع لم أصدق، وأكد لي -وقتها- عبده الخال، أمين اسراره أن كل ما حكاه حسن، محض أكاذيب. فقد سمع الشائعات عن ست ذكية، التي كان قد تعرف عليها بواسطة عبده الخال نفسه، الذي كان (الخال) قد ربطته بها علاقة حميمة فيما مضى، وقرر حسن التقرب منها، من خلف ظهره، فحسمته وطردته شر طردة!.. فأخذ يحكي عنها هذه الأكاذيب!

ولذلك خطر لي أن حسن لم يُقم أي علاقة مع ثريا، لكنني لا أستبعد أنه كان يلتقيها، ويحكي لها عني ما ينفّرُها مني، ويجعلها تمارس تجاهي ذلك السلوك العجيب، الذي لم أستطع فهمه على الإطلاق!

VII

متداخلة هي شبكة الروايات الشفاهية، التي تعرفت خلالها، على الجوانب الخفية والسرية لنفسي وللآخرين، فيمن احتككت بهم لفترة طويلة من حياتي!..

مع ذلك لم أثق بكل هذه الروايات، وإن كنت كثيراً ما اعتمدها كعوامل مكملة لما أقف عليه من حقائق، غير قابلة للدحض.

هذا هو منهجي الآن فيما أجره من مراجعات، لوقائع وأحداث حياتي وامتزاجها في حياة جلاي ود عربي، وما يتصل بها..

هؤلاء الشخوص الذين كنت أرى فيهم. كل الشخوص الذين عبروا على مجتمعات البلاد الكبيرة، عبر تاريخ أسرها المظلم المديد، فصنعوا حقبها المختلفة، بأفراحها وأحزانها.. مراثيها وأمجادها، دون أن يتعرف عليهم أحد من المؤرخين أو يهتم بهم.

فالمؤرخين اهتموا فقط للأثر، الذي خلفه الأفراد من أبناء جلاي، الذين تقلدوا مواقع السلطة الثقافية أو السياسية وأصبحوا مهمين، ولذلك ركزوا دوماً على دراسة الفرد، وليس الجماعة في المكان المعين!

فالتاريخ بالنسبة لهم سجل لبطولات الأفراد العباقر، الذين يحركون الأحداث بأطراف أصابعهم واصواتهم الجهورية العالية! وهكذا يهملون أو يتجاهلون دور البسطاء من جلاي، في صناعة الثورات وصياغة الأحداث.. هؤلاء المهمشين المعطونين في الفجيعة!

يتصورون أن إهمال دور الفرد في التاريخ، أو التقليل من شأنه يتعارض مع وقائع الأحداث، التي صنعها بالفعل القادة.

ولا أحد يختلف معهم في أن هذا التقليل والإهمال لدور الفرد

يخالف الواقع، ولكن التركيز المطلق على دوره يخالف أيضا واقعا آخر..

فالتركز على دور فرد ما مثل حسان جداد أو لاکو لادو أو مجموعة من المجموعات التي سكنت جلایي، في مراحل مختلفة. منذ أيام كان اسمها ساورا المقدسة، في التأثير على ظاهرة تاريخية معينة، ليس هو المنهج الذي يمكن الاعتماد عليه، في رؤية ظواهر التاريخ التي كشفت عنها جلایي!

فهذا التركيز بفضل عشرات العوامل المعقدة، التي أثرت على الظاهرة، وتحصر المسألة في جوانب فرعية مهما كان تأثيرها، فإنها لا تستطيع أن تؤثر في الظاهرة التاريخية، تأثيرا ينقلها من النقيض إلى النقيض!

المؤرخين الذين شدتهم حكايا جلایي، سلطوا الضوء على بعض الأفراد الطائفيين، كود الخزين ومحمد أحمد ود مستورة وود الباهي أو أبو لكيك الجنكويزي نفسه، ومجدوا بذلك ذاتية هؤلاء الأفراد غير المهمين!

ولذلك عندما تخطر حكايا جلایي في ذهني الآن، لا أرى سوى الجماهير الغفيرة، التي تعاقبت عليها، عبر مراحل التاريخ المختلفة. هذه الجماهير التي مثلها كسبان الضاوي ومزيد الحلبي والسرة وام التيمان، وقبل كل هؤلاء وأولئك بولدين و سورنق وأسلافهما في ساورا وممالك جلایي الغابرة.

هؤلاء العباقرة الذين لولاهم، لما كان لجلایي وجود. ولما أهتم بها أحد من المؤرخين، الذين أعدوا رسائل الدكتوراه والماجستير، وكل ما هو من قبيل الدراسات العليا فقط، في جلایي كبوتقة! منهم من كتب عنها محتفيا بدور الفرد؛ إلى درجة أن واحدة من هذه الرسائل،

ذهبت للبحث في العوامل الذاتية التي فجرت طاقات جداد، وذهبت
أخرى للبحث عن الأسباب الداخلية والخارجية لحريق جلالي الكبير!
وناقش أحد طلبة الماجستير باستماتة! استنتاجاته النظرية
التاريخية، حول الدور البارز للقائد لادو في تطوير مفهوم الوحدة
الوطنية لجلالي؟

وهكذا ذهب آخريين للحديث عن السياسات الجنكوية ممثلة
في الممارسات الجائرة لتنظيم القرى ومعالجة السكن الاضطراري، بينما
هي في واقع الأمر مجرد سياسات غير ايجابية، ولا علاقة لها بالتاريخ
الذي يصنعه الشعب في جلالي.. ظانين أنها تمثل التاريخ الحقيقي
لجلالي. وما كانت هذه الرسائل إلا خطوة منهجية في مصادرة تاريخ
جلالي ود عربي، وتكريس لآيديولوجيا التفوق الذاتية!.. أيديولوجيا
الفرد المسيطر الأسطوري الخالد!

VIII

من حافة الحلم. عند أقصى زوايا الخاطر، يقفز أبكر خارجا من الدوائر المتموجة للبخور. لم تكن ثمة رواية مؤكدة يمكن الاعتماد عليها، في إضاءة الحياة السريّة، التي ظل يعيشها في جلالي، إلى أن اختفى هو وبيته، في لحظة حصار غاشمة.

لم تكن ثمة رواية مؤكدة، يمكن الاعتماد عليها، في إضاءة الحياة السرية، التي ظل يعيشها كأدمو أو كأبكر.. حتى تلك اللحظة ذات صبيحة كثيفة! مشبعة برائحة الرطوبة والبرد والبارود!

البرد، الذي لم يثلّج أطراف الناس فحسب، بل ثلّج كل البيوت في جلالي، التي صدمت ذلك اليوم ودخلت في لجج الهلع والخوف، وهي ترى أبكر يرمى أمامها بالرصاص تحت عود المشنقة.. هكذا علنا، دون رافة. على مرأى ومسمع من الجميع!

مع أن أبكر ظل منسيا كمعلم بارز في ذاكرة الحكي اليومي، إلا أن لا أحد ممن عاصروا لحظة حلوله بجلالي، سينسى إلى الأبد! كيف انتصب بيته لوحده بإشارة من يده فقط!

جاء أبكر للمرة الأولى، وأقام ثلاثة أيام في العراء، رافضا تلبية دعوة الأهالي استضافته في بيوتهم.. و مضى في صبيحة اليوم الرابع إلى سوق جلالي، لشراء مواد بناء للبيت الذي أزمع تشييده. كوّم البائع أمامه كل ما طلبه:

من حصير وقش وقنا وحطب، وعندما أحضر الكارو كان المكان خاليا من أبكر ومواد البناء! سأل جيرانه من تجار مواد البناء، فأكدوا أنهم لم يروا زبونهم المزعوم! ولم يروا عربة كارو تحمل مواد

بناء، وفي الواقع لم يروا شيئاً على الإطلاق! من أي نوع كان. فكل ما يعبر بهم لهو من الوضوح، بحيث يشعرون به حتى لو غضوا النظر! رأى الناس أبكر يقف في طرف البلدة، وقد تكوّمت أمامه مواد البناء.. رفع يده اليمنى فانتصبت “قطية” غريبة التصميم في الهواء، قبل أن تستقر على الأرض!..

ومضى بتؤدة إلى داخل القطية.. أشعل فيها النار والناس يراقبون مندهشين.. أتت النار على القطية والناس يتساءلون: لماذا انتحر الرجل حرقاً؟

لكنهم فوجئوا به يخرج من كومة رماد القطية حياً، لا شيء من الحروق عليه سوى الرماد على ثيابه، التي كانت قد احترقت، ولا يزال رمادها يغطيه، كأنه ثوب وليس رماد.. ثوب؟!!

تراجع الناس خائفين.. تبقى منهم قلائل ينظرون لأبكر الذي رفع يده اليسرى فتساقط الرماد منها وأصبحت عارية، فانتصبت قطية أخرى من قلب الرماد.. غريبة الشكل لم يروا مثلها من قبل. إذ تجلى في تصميمها كل شكل منسي من الأشكال الهندسية الغامضة!..

كانت قطية جميلة توسطت سورا من شوك المسكيت الجاف.

ومنذ تلك اللحظة أخذ الأهالي يتعاملون مع أبكر كساحر كبير، وأخذوا يمنون أنفسهم الأماني، وأجتهدوا في التقرب إليه. إلا أنه كان من الواضح أن أبكر لا يرغب في أي نوع من العلاقات الخاصة، تربطه بأي شخص من أهالي جلالي.

تلك الحادثة المذهلة. المتعلقة ببناء أبكر لقطيته، ظلت حديث الأهالي الذين أخذوا يتناقلونها جيلا عن جيل، في اللحظات التي تحتج

فيها شخصية أبكر، على سقوطها عن ذاكرة الحكي اليومي، متشبثة بتلابيب الذاكرة الباطنة..

ورغم سقوط أبكر عن ذاكرة الحكي اليومي، إلا أن حكايته انتشرت خارج جلاي!

فوصلت أسماع النساء والرجال في المدينة الريفية، والمدن المجاورة. وأخذت الفداديات تذهبن إلى أبكر، ليكتب لهن الحجابات التي تحميهن من “الكشة” أو التي تجلب إليهن الرزق بل والمرشحين في الانتخابات المغشوشة للمجالس البلدية، كانوا يحضرون منكسرين إلى منزل أبكر، كي يكتب لهم حتى يتمكنوا من الفوز، وهكذا تمددت سمعة أبكر، في كل أنحاء البلاد الكبيرة.

لم تكن لأبكر علاقة سوى بشخصين، اصطفاهما من دون كل الأهالي: هما كسبان الضاوي وجمال الحلة..

وربما كان ذلك لأن كسبان رجل في حاله! أشبه بالمجاذيب، إذ يكون في لحظة واعيا ومدركا مثل تلك اللحظات التي كان ينور فيها الأهالي، بأهمية الحشيش والبنقو، وفي لحظات أخرى يكون غير عالم بأي شيء يجري حوله! سابحا في ملكوت بعيد عن عالم جلاي.. وجمال الحلة ربما لأنه قريب الشبه في أحواله من كسبان.

قرّبه ذلك من أبكر فقد كان “بركة” كما يعتقد فيه الأهالي! إلى درجة أنهم صوروه، وعلقوا صوره في دكاكينهم وبيوتهم لتجلب لهم الرزق والخير، وتحميهم من الشر!

وفكرة البركة التي يعتقدها أهالي جلاي، لا أحد يدري على وجه التدقيق جذورها وكيف نشأت في أذهانهم! فالرجل لم تكن له كرامة واضحة، كعبد الرحمن العوير مثلاً! عندما رفع يديه فأحترق بيت أم التيمان؟!

إذن باستثناء كسبان الضاوي وجمال الحلة، وزبائنه من الجنسين،
لم يكن أبكر يسمح لأحد بدخول بيته.

ولذلك عندما أعلن حسان جداد حملته الانتقامية ضد أبكر
المعراقي، كان كسبان وجمال هما اللذان تصديا لهذه الحملة الشرسة!
ثمّة علاقة محتملة بين أبكر ومزيد الحلبي، لكنها غير مؤكدة
فالبعض يقول بها والبعض الآخر ينفيها!

IX

من أين تبدأ الحكاية وأين تنتهي؟.. من هؤلاء الذين حولوا
تاريخ جلالي، إلى تاريخ عابرين سبيل؟!..

أم من المقولات الكبيرة والكثيرة والمثيرة التي انطلقت منها فكرة
الحنين إلى الوطن، وهي تبحث في عالم جديد، يتكون في تشظى وتمزق
عالم يؤول إلى الانهيار والتلاشي!

عالم تنهض فيه جلالي أرض النازحين التاريخيين، في ساورا البائدة أو
مملكة الجبل والوادي، بمجھوليها الذين جاءوا من كل مكان، يحملون
حرمانهم وأحزانهم وهزائمهم.. إحباطاتهم وخذلاناتهم العميقة؟!..

من أين جاء هؤلاء.. إنه السؤال الذي شغل البال، وقتل من
بحث فيه!.. فمن أين أتى هؤلاء إلى ساورا.. إلى جلالي ود عربي.. إلى
أشباه المدن في البلاد الكبيرة الأسيرة.

لم يأتوا كالتروبادور المرتحلين بغنائهم الرومانسي المعذب في
اللانهاية.. عابرين بخيالاتهم البحار العظيمة. يواجهون غضب طبيعة
متوهمة. وأهوال وحوش لا وجود لها.

ثم يتكئون على صدر جلالي، ينفضون عذاباتهم لتنهار كما نهضت
في الانهيار، مثل مملكة الجوار.. ربما.. الحلفاء.. ربما.. مثل كل دويلات
المدن.. تنهار بفعل الغربة والحنين!..

إنها جلالي لحظة الميلاد! جلالي الناهضة في قلب سوق البلاد
الأسيرة، تستمرراً تعاطى الأحجيات والحواديت، عن الذي يأتي ولا يأتي..
وميلاد عصر جديد، سهلت فيه عملية تبادل وانتقال عناصر الثقافة،
فتقاربت الجزر المعزولة بما جعل التواصل يتغلغل في الوجدان،

ليتشكل النسيج الذي طالما حلم به الأسلاف في ساورا البائدة!
لكن قبل أن يموت السؤال، تنهض في الفضاء الطرقي للمدينة
الريفية آلاف من جلابي ود عربي، من كل شكل ونوع.. شاهقة، شاهقة،
شاهقة على الرغم مما يضرها من نزييف.. ذات نزييف جبل “سابا”
صديقة الجنيات، عندما رمت بنفسها من أعلى شرفات قصرها الملكي،
احتجاجا على استيلاء “بييه” على السلطة، في مملكة الجبل والوادي..
الجبل ينزف.. والسؤال يظن أنه سيهدم العالم ويشيده على نحو
مختلف.. لا انهدم العالم ولا تغير الناس! ظل السؤال هو السؤال..

وظل المشهد كماهو: نزييف وضجيج وانهاك فالبدو تدخلوا بعدتهم
وعتادهم، يدعمهم الجنكويز الرسميون، الذين لا تفتأ تفاجئهم
الوديان، بنعومتها و طزاجتها..

البدو بعدتهم وعتادهم يرمون الجبل بالراجمات، تؤازرهم
الطائرات، لينجرح الخاطر ويستحيل تناغم الطبيعة إيقاعا مختلا!
يضرج وحدة السؤال وحدته وتوحده.. ويهدمه ليعيد السؤال بناء
نفسه من جديد!

هل كان وقتها هناك طائرات وراجمات؟

لكن كيف أعدم أبكر أو شق، أو قتل؟

لا زال السؤال يظن أنه سيثيد الاجابة! على نحو مختلف!

كيف لهم ان يفهموا ان الجبل خارج إطار الفيزياء. كيف لهم
أن يفهموا أن مغزاه الروحي؛ سيظل أخضرا مثل الفضاء المرتحل في
اللوعة والغياب، والمهاجرين القدامى والجدد، إلى فضاء يسبق جلابي
القديمة، وهي تتكون في التمزقات!

ها هو السؤال يستعد للنفي الاختياري والرحيل، يمضي كعبد

الكريم من عشيرة "كليبا" التي ينحدر منها أبكر، الى قصر السلطان..
ما أن يبلغ سن الرشد، حتى يقود الفرسان ضد "العريقات" الجد..
يطردهم من آبار كارنوي في دار "قلا" ويزحف حافرا في طبقات
الوعي القصى ليحرر الناس والمكان والوادي والشجر والقرود وأشجار
القمبيل.

ليدخل الجميع في مزيد من الأسئلة الحرجة! لينفك اسار الجبل..
بينما يسقط آلاف القتلى يرؤون بدمائهم الوديان..

في اللحظة ذاتها يختلف المثقفون المأزومون حول بروتكول
ميشاكوس، ويناقش الساسة والمفكرون المرعومون، الإلياذة والأوديسة
في كافتيريات هيئات التدريس، ويتغنى الجميع برحلات جلجامش،
لإيجاد ربط بين مؤسسات المجتمع الأهلي في المدينة الريفية وحاضرة
البلاد الكبيرة، وسومر وبابل..

حينئذ ينشغل المثقفون الحقيقيون المختفون في الأحراش والكهوف
والوديان، بشروحات ما يتداولون بينهم من آيات من كتاب الحكيم
فرانز فانون عن معذبين الأرض!

هؤلاء المثقفون، الذين كانوا أشبه بالدراويش وهم يمرون كسابلة،
بثيابهم المرقعة، كما مرّالأشوريين يوما، عبر ثقوب الأيديولوجيا، في
كافتيريا (اتنى) وقاع المدينة الريفية في قلب البلاد الكبيرة، وبجوار
جامع جداد..

ويحتدم السجال فيما إذا كان لابن عربي تأثير على الشعراء
المجاذيب، أو كون مالى والصونغاي وإمارات الساحل، محض مؤامرة
شيعية!

والى أى مدى تداخلت الأزمنة الثقافية، في بوتقة الصهر. الفرن
الجنكويزي في حاضرة البلاد الأسيرة.

كانت مسارب الأيديولوجيا ترتفع فوق سفح جلاي فيدلو منبر حانة أتني في ساورا البائدة، بدلوه وتتدلى أسئلة الوجود، في الفراغ الذي تنهض فيه جلاي بعواملها المعلنة مع سبق الإصرار والترصد!

فإلى (اتنى) يأتي القلقين.. المتوترين والموتورين، الذين لا يستطيعون الاستمرار في أي عمل، نظرا لحساسيتهم المفرطة تجاه المضايقات. التي تجعلهم يشعرون بالحزن والتشاؤم، ما يدفعهم للغربة والاغتراب، حيث هم! فتدهمهم المنافي بالحنين، فيتاوهون ويغمدون جراحاتهم، أقصى تفاصيل الفجيعة والدمار.. و.. ويمضي الواحد منهم باحساس محارب منقرض! انها (اتنى) جلاي ود عربي، فكل بيت في جلاي هو أتني.. أتني الباحثين عن وطن دفاء، في الخمر البلدى المختلس!

نزل عليهم بروتوكول مشاكوس كالصاعقة، والآن يفيقون من سكر دام لعقود طويلة على نيفاشا يحلمون بالبلاد الكبيرة الجديدة!.. لكن لا شيء سوى الألم والرعب في العيون الخبيثة الكابية، ففى فراغ اتنى تمر الصور، الذكريات، والأخيلة التي عاشوا لأجلها طيوفا ممزقة بالأسى والحرمان..

فيكتب البعض بإيحاء السؤال وأسئلة أخرى: بين مطرقة اليانكي وسندان النازيين السم: أحداث ووقائع العذابات اليومية بوحدتها ووحشتها واساها في الخط الفاصل بين عالمين لينطوي السؤال على نبوءة المأساة!

تنهض هنا مساحة خالية.. ملأى بالتساؤلات الحارقة، لم تتمكن المخطوطة السرية من الإجابة عنها..

تساؤلات يحملها التاريخ السحيق لشعوب البلاد الكبيرة.. شعب الوادى الذى يتكون فى التمزق الشامل للناس والحياة والوادى ذاته.. الوادى بطبيعته وناسه واحساساته الغامضة.. الوادى الشاهد على

اندثار أجيال ومولد اخرى، بافكارها المتباينة وتطلعاتها المتعددة عن:
الحياة والناس والوجود والمصير والهدف..

حياة الوادي المتبدلة بناسها، هي حياة السؤال نفسه، مذ كان
هاجسا في خاطر الكون، في لحظة دقيقة تفصل بين عالمين ينهض على
ركاميهما الوادي، كشاهد على عواصف الطبيعة، وزوابع التاريخ!..

رما هو اللوذ باليانكي الغرباء، الذين قدموا رغم أنف رائحة
التراب وعبق التاريخ، ورغم أنف العالم المقهور كله!

حماة للسلام ورعاة للديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان، كما
يزعمون.. جاءوا كما جاء أجدادهم من قبل. يدعون اخراج الناس
من الظلمات إلى النور، فغاص الناس في الظلمات أكثر فأكثر.

لم يرفض شعب الوادي والجبال اليانكي، كما فعل الأسلاف منذ
وقت بعيد.

لم يرفضوهم على الرغم من أنهم كانوا يدركون، أن اليانكي سيأخذون
ثمنا غاليا، من وجدان الناس وثروات الجبال الغنية واحساسات الأرض.

هذا القبول باليانكي ينطوى على أسئلة محرجة، حول العلاقة
بالسلطة الوطنية، منذ غادر الإنجليز حتى لحظة تدخل اليانكي لانتهاء
الحرب الاهلية! فمن الموقع الآخر، في الغابات يتكرر ذات الموقف: لم
يرفض رجال الغابات اليانكي، سمحوا لهم باقتلاع الأشجار و الحفر
عميقا في باطن الأرض لاستخراج الزيت، بعد أن ارضوا الفرنسيين،
الذين لا تزال الاشواق الديغولية تعمل عملها في تطلعاتهم العولمية!

إذن لم يأت اليانكي هذه المرة، كرجال منظمات إنسانية فحسب
لمحاربة الفقر والجهل والمرض. ورجال الغابات يعلمون ذلك، ويقبلونه
بطيب خاطر. فقد أوقف اليانكي الحرب، وأصبح بالامكان مساءلة
الحكومة الجنكويزية عن الميزانية العامة للدولة!؟

لكن سلطة اليانكي تتمدد لتشمل كل أطراف البلاد الكبيرة
المهمشة!.. لم يعترض أحد على اليانكي، فقد اشتغلت بنجاح تام رمزية
الغريب، الحكيم: الذي يملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا!

X

والآن إذن، من أعلى برهات هذه اللحظة الشاهقة ها أنا أجلس وحدي على إحدى شرفات خاطري المتسع، لأراقب أحوال العالم المنسي لجلابي ود عربي.

فتاريخ جلابي هو تاريخ النازحين ونزوحهم، فمن ذكريات النزوح المتعاقبة، تشكلت الذاكرة الجمعية لجلابي. ومن أحزان ومآسي النازحين، تشكل الوجدان الثقافي لجلابي، ففي موجة النزوح التاسعة، خلال قرن من الزمان، في بدايات الربع الأخير من القرن الماضي. توافد المزيد من النازحين من أطراف البلاد الكبيرة، وأطراف المدن الريفية البعيدة عن مجرى النيل.

فجفاف تلك السنوات، لم يصب دار الريح فحسب في مقتل، بل ضرب كل الأواسط البعيدة عن النيل. خاصة أن الأزمات الاقتصادية، بسبب الفساد السياسي والمحسوبة، والنهب المنظم للموارد، الخ.. من أسباب وعوامل بلغت ذروتها، وأضطرت الناس إلى النزوح، فكانت جلابي التي أنشأها النازحون الأوائل مركز جذب ألتقى عنده كل هؤلاء وأولئك، الذين محلت أراضيهم، وجفت آبارهم ونفقت بهائمهم فلاذوا بجلابي.

التي كان اقتصادها التقليدي المحدود لا يقوى على مقابلة الاحتياجات الضرورية المتعظمة، للكثافة السكانية المتنامية!

تدفقت منظمات العون الإنساني والإغاثة الأمريكية، ولأول مرة في تاريخ الاغاثات التي كانت تتم على مقربة من جلابي، تتعرف الأجيال الجديدة من النازحين على اسم "أميركا" وريغان.. هذين الاسمين، الذين حملتهما أغنيات الحكامات، والمغنين البدو وأشعار المسادير

والدوبيت، وغنا الهدّاي والمردوع والجراري.

ومضى الذين لديهم حاجة متعسرة، يندهون في صلاتهم: “ريغان يا ولي الله الصالح تلحقنا وتفزعنا!..”

حتى أن عازفي “الربابات والطناير وأم كيكي” جعلوا من أسمى أميركا وريغان مفتتحا لقصائدهم المحيطة، التي تمدح الخواجة النبيل! هذه الأغنيات ترنم بها القاصي والداني، في أنحاء البلاد الكبيرة، وشغلت الناس وقتا طويلا، وبات الكثيرون من البسطاء يعتقدون أن أميركا هي قلب الدنيا الحنون، وريغان هو الرجل الصالح كأولياء الله والذي لم يروه أبدا، فقد اكتفى بإرسال الطرود، المحملة بالمعلبات والزيوت والذرة والقمح والأغذية المختلفة، لإغاثة عباد الله المؤمنين في جلاي وأطرافها وامتداداتها، إلى قلب المدينة الريفية، التي أصبح يطلق عليها أيضا اسم “الفردوس”.

ويبدو أن الرجل الصالح ريغان، كان يعلم تمام العلم أن موظفي الإغاثة من أبناء المدينة الريفية، أو البلاد الكبيرة يعاونهم المجلس البلدي، سيتمكنون من سرقة المواد الإغاثية، وبيعها لأصحاب الكنايين، ولذلك أرسل إغاثة لا عدّها لها أو حصر! حتى لا تتأثر بالنقصان مهما كان حجم السرقة!

وبالفعل ظل هناك دائما ما يكفي لحاجات النازحين، الذين لولا الرجل الصالح ريغان، لقضوا نحبهم جوعا وعطشا.

إذ لم يكتف هذا الرجل بإرسال الإغاثات. بل أرسل محولات كهرباء صغيرة، وأجهزة ومعدات طبية، كما علم النازحون الذين في واقع الأمر لم تصلهم هذه المحولات والأجهزة والمعدات، إذ اختفت في ميناء شرق البلاد، بمجرد وصولها، وقيدت قضية اختفائها ضد مجهول!

لكن موظفي ريغان، خشية تكرار مثل هذه الحوادث الغامضة، جاءوا بأنفسهم وأنشأوا مستشفى طوارئ ومحطات مياه ورياض للأطفال.

كانوا يقدمون في هذه الرياض، خدمات عديدة من غذاء صحي، وتطعيم ولبس وعلاج. في مناطق النازحين. وتوسعت مشاريع الأب ريغان، لتشمل القرى المحيطة بالمدينة الريفية، فأنشأوا عبر فروع منظماتهم عدداً من القرى النموذجية، المميّزة بخدماتها الأساسية: المراحيض الثابتة، والحمامات والمطابخ والكهرباء ومواسير وتنقيه المياه.

مضى ذلك الزمن إذن، الذي يقضي فيه الواحد من هؤلاء حاجته في العراء، أو يستحم داخل ذات المكان الذي ينام أو يطبخ فيه! بعد أن يخوض نضالا مستميتا، لأجل الحصول على الماء..

وهكذا انقرضت الكوليرا مؤقتا، ودخلت متحف الأمراض الأثرية مؤقتا! ولم تطل برأسها مرة أخرى إلا بعد أن أوقف الجنكويز مشاريع هذه المنظمات وقاموا بطردها، قبيل اجتياح الفيضان الكبير للبلاد الأسيرة، في أول خريف بعد سنوات الجفاف والتصحر.

اجتاحت الأمطار والسيول البلاد الكبيرة من شرقها إلى غربها، فلم تنجو إلا مناطق قليلة، وشهدت البلاد بسبب ذلك مجاعة لم يسبق لها مثيل، وقتها كان الأب ريغان، قد اختفى بصورة غامضة هو الآخر، وسرت شائعة أنه أصيب بالزهايمر لهول ما رأى من مأس البلاد الكبيرة، فأودعته سي أي إيه إحدى مصحات جون هوبكنز في بالتيمور! ثم انقطعت اخبار الولي الصالح ريغان ولم يعد أحد يسمع عنه شيئا! حينئذ أصبح الناس، يشربون الشاي والقهوة بالبلح وحلاوة الدربس، فقد أصبح السكر يندرج، في باب الذكريات العزيزة، رغم

وجود مصانع تنتج ما يزيد أضعافا مضاعفة عن حاجة السكان!
وأصبح اعتماد الناس في غذائهم اليومي على بعض النباتات البرية و
الطيور الموسمية، التي تضل اسرابها الطريق الى البلاد الأسيرة.

تلك سنوات لم تشهد لها البلاد الأسيرة مثيل، إلا على أيام الخليفة
الجنكويزي ود تورشين، وخلفه بعد جلاء الإنجليز من آل أبولكيك
المتعاقبين!

XI

إذن ظل الناس رجالا ونساء في جلالي ود عربي وامتداداتها، يتذكرون الرجل الصالح ريغان ويدعون له أيا كان المكان الذي أودع فيه، بطول العمر والصحة والعافية! وزيارة قبر الرسول الكريم، ويتمنون له أن يتصدر قائمة الشهداء والصديقين! في الدار الآخرة منذ عهد آدم ونوح إلى عهد المبجل father moon ويدخل الجنة كولي من أولياء الله الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. آمين..

بمجيء النازحين مرة أخرى بهذه الأعداد المهولة، وإنشاءهم المساكن المؤقتة، في إمتدادات جلالي وحولها، ما لبثت أن ابتلعت أراضى الحواشات، التي يمتلكها سكان المدينة الريفية..

بتكاثفهم هكذا توصل الخيال الاقتصادي لجلالي، إلى ضرورة إقامة سوق جديد، يستطيع استيعاب الحاجات الجديدة الناشئة عن تمدد جلالي، وكثافة سكانها وتنوع احتياجاتهم، فنشأ سوق "الحر" الذي سرعان ما تم تغيير اسمه إلى سوق "العصر" ففي البداية كان الناس يأتون بعد الظهرية، بعربات الكاروالمحملة بـ "الأقشي" وعصير الليمون والكركيدي، والكوارع و"القدو قدو" والسّمك والخضروات واللحوم، إلخ..

ولكن بعد أن وجد السوق رواجاً، أصبحوا يأتون بتجارتهم المختلفة، قبل أن تفشي الظهيرة عن نفسها. ومن هنا كان الاسم: "سوق الحر".. أصبح سوق الحر بمثابة الملتقى للأحبة، فالفتيات والشبان، يستغلون التسوق لتبادل الأحاديث الغرامية، ما أضاف لقاموس لغة الراندوك مفردات جديدة، وظفت فيها الكنايات والتشبيهات المنجورة، على نحو خلاق غير مسبوق!..

إذ يقول الفتى لبائع السمك مثلاً:

“من أعماق البحر و تأخرت في النار شديد”.. فيرد عليه البائع دون أن يدري ما وراء هذا الكلام:

“لا والله مقلية مطبوط”

فتفهم الفتاة، التي تكون وقتها بجوارهما تشتري من بائع الخضار، أن حبيبها على جمر الشوق يتلظى مشتاقاً للقاء المنتظر! وهكذا ترد دون أن تلتفت انتباه شقيقها الذي يرافقها:

“رغم انو أمي منعنتي من الشراء منك، واخرتني لحدي ما وافقت، وحذرتني من خضارك البايث. إلا أنا ما بغير الزباين”

ويفهم الفتى الصعوبات التي تواجهها حبيبته في سبيل لقاءه..

وهكذا عبر هذه اللغة الجلابية البديعة، يتم استغلال لغة التسوق لتنظيم وإنجاز المواعيد والمقابلات بين الأحبة، المتوقعين والعشاق القدامى والمحتملين والجدد، إلخ..

ولأن الأفق الاستثماري لجلابي عبر تجارها الاقتصادية، أصبح منطلقاً ورحباً فقد استثمرت اللجنة الشعبية لجلابي، نشوء هذا السوق، ففرضت إتوات على الباعة.

انعكس الأثر التراكمي لهذه الرسوم، في ادعاء اللجنة الشعبية أنها أنجزت منه المدرسة الابتدائية، التي في الحقيقة بناها شعب جلابي بالعون الذاتي! مع أن جلابي لم يكن بها أطفال!

لكن المدرسة كانت تعمل فكل طلابها من أبناء النازحين، الذين كانوا يقطنون امتدادات جلابي!

ما ميز جلابي لوقت طويل، هو النسيج الاجتماعي المنسجم والتماسك لسكانها، إذ لم يكن هناك تقسيمات لأهاليها، بناء على

حساسيات من أي نوع، على الرّغم من بساطتهم، لكن ما أن أصبحت الأحزاب السياسية، تهتم باستغلال جلاي، وتقيم فيها الندوات في المواسم الانتخابية، وتزامن ذلك مع عودة جداد من الأراضي المقدسة محملاً بأفكار الإرهابي التاريخي ود عبد الوهاب حتى أصبحت جلاي بلدة أخرى، غير تلك التي عرفها سكانها المتعاقبين!

أفاق الناس فجأة فوجدوا أن أسماء شوارعهم ودروبهم قد تغيرت فهذا شارع خالد ابن الوليد وذاك شارع بلال بن رباح وتلك محطة خباب، حتى يخالها الغائب عنها لدى زيارتها، إنها مكة، فيهتف مأخوذاً: يا أهل مكة أين داري!

كانت دروب جلاي تحمل أسماء تتعلق بذاكرة المكان وما جرى فيه أو يجري من وقائع وأحداث، كدرب الريد، الذي يتسكع فيه العشاق، أو شارع قلب التور، المشهور بصناعة العرقي “التور كبس!” ومحطة البابور، التي كانت تشير للبابور القديمة التي تروي الجروف عند امتداد قيف النهر! أو ميدان أُلماظ البطل، حيث يشاع أن قادة حركة اللواء الأبيض المدنيين كانوا يخاطبون هنا شعب جلاي وتعبئته للثورة ضد الانجليز المساخيط!

وقتها كانت كل جلاي تدعى “جلاي ودعري” فقط دون تسميات اخرى.. الآن أصبحت الأجزاء الشرقية منها، تدعى بحلة العرب والأجزاء الشمالية بحلة الفُمز، والأجزاء الجنوبية بحلة الغرابة الزرقة، والأجزاء الغربية بالجانقي!

حتى أن كل جزء من هذه الأجزاء، أصبحت له أسماء أخرى فحلة العرب بأجزائها السبعة، لكل جزء من هذه الأجزاء اسم يخصه. فهذا الجزء لدغيم وذلك الجزء للحسانية وهذا للبرقو والمساليث والزغاوة والفلاتة، وهكذا..

كانت تفاصيل الساعات اليومية لجلاي، على مدى قرون من الزمان هي ذاتها لم تتغير. تتحرك على مستويين: مستوى في الشتاء وآخر في الصيف.

الفرق بينهما هو أن أهالي جلاي في الشتاء يختبئون في منازلهم مجرد أن تغيب الشمس. عكس الصيف إذ ينامون مع تباشير الفجر. لكن تفاصيل أوقاتهم هي ذاتها لا تتغير، فالتغيير فقط في تقديم وتأخير الزمن، وفقا للتوقيت الخاص بجلاي إذ يتقدم على غرينتش بثلاث ساعات وخمسة دقائق وثانيتين!

وقتها كانت جلاي تتمتع بنوع من الحكم الذاتي، إذ تخشاها الجهات الرسمية، خاصة الشرطة والمباحث والأمن، ولذلك يحرصون عند شن واحدة من الغارات على جلاي ود عربي، أن يكونوا مدججين بالعدّة والعتاد، حتى يخاف الناس! ولا يكون ثمة ضحايا في الأرواح. بالطبع ما أن يحل الشتاء، حتى يتوقف أهالي جلاي عن شرب المريسة، فهم بحاجة للدفاء، والمريسة تُرطب الجسم.

وعلى هذا الأساس كانت جلاي عن بكرة أبيها، في الصيف منذ الساعات الأولى من الظهيرة، ترتوي بحمصها من المريسة. التي غالبا ما تكون بالنسبة لكثيرين، ليست مجرد خمر بلدي بقدر ما هي غذاء يومي.

حتى أن مدير المدرسة الريفية، عندما طرد خميس ود السرة، وطلب منه إحضار ولي أمره، جاءت السرة غاضبة فتكلم معها المدير عن سبب طرده لابنها:

“الولد طردناه عشان بيجي المدرسة سكران بالمريسة؛ شارب مريسة”

فردت عليه بغضب:

“يعني ما يفطر.. ما ياكل.. ولا شنو يعني. يجي المدرسة جيعان بدون فطور.. كيف الكلام ده؟! ”

وظلت تصرخ بوجه المدير الذي أدرك لأول مرة في حياته الأكاديمية العامرة بالاحلام، أن المريسة هي غذاء رئيسي في ثقافة السرة، والكحول ما هو إلا ناتج ثانوي يصاحب عملية صناعة هذه الوجبة، الغنية بالسكرّيات والبروتين والفيتامين..

XII

بعد وقت طويل من علاقتي بأَم التيمان، كنت قد ألححت عليها
بالسؤال عن سوكا حبيبها صاحب الرسائل الغرامية القديمة، التي
كنت أقرأها لها كل يوم.

فتنهدت بعمق وهي تتكئ على الجدار، وتمد قدميها كأبي حنيفة،
حتى يلامسا حافة السرير! أخذت تحكي بصوت مروع:

“كان سليمان (سوكا) ابن الجيران، الذي أحببته من دون كل فتیان
الحلة. فقد نشأنا معا، وعندما أصبحنا في مرحلة المراهقة، قرر أن
يتزوجني، لكن أهلنا رفضوا، وحلف الجميع ستين يمينا.. كانوا ينظرون
إلينا، كأطفال ليس إلا!

ترك سوكا المدرسة وهرب، فغابت أخباره ثم أصبحت متقطعة،
بين آن وآخر، لكن كل الأخبار التي كانت تصل.. كانت متناقضة. فمن
يقول أنه مات في أفريقيا الوسطى، ومن يقول بل مات في الصحراء
في الطريق إلى ليبيا، بينما بعضها يؤكد أنه قتل في الصراع المسلح، في
دار الريح..

ويعصر بعض حاملي الأخبار، على أنهم شاهدوه في ليبيا حيا يرزق
و علموا منه، أنه كان في معسكر اللاجئين بتشاد، وهكذا لم أعد أعرف
هل هو حي أم ميت!

وكنت قد كرهت أهلي وأهله و انكفأت على ذاتي معتزلة الناس.
ثم أخذت أفكر في الهرب للبحث عنه. إلى أن حانت الفرصة وتمكنت
من الهرب.. بحثت عنه في أماكن كثيرة، استطعت الوصول إليها.
وعندما فشلت في الوصول إلى أماكن أخرى للبحث عنه. كان قد قيل

لي أنه شوهد فيها، يُست فجئت للاستقرار في جلالي، التي أصبح
أهلها أهلي و ناسها ناسي.

لم يعد بالإمكان أن أعود إلى أهلي. فهم لا محالة سيقتلونني حالما
يروني. ولذلك حرصت حتى على تغيير اسمي الحقيقي!

“وما اسمك الحقيقي؟”

ابتسمت ولم تجب..

“ألا تثقين بي؟”

“بل أثق بك”

“إذن لماذا لا تقولين اسمك الحقيقي.. لماذا لا تخبريني؟!”

“الأفضل ألا تعرفه.. كما أنه لن يفيدك بشيء، فقد سار عليّ اسم
أم التيمان.. والجميع لا يعرفون لي اسما سواه”

قطع حوارنا دخول سلمى خير الله، التي كنت قد عرفتُها بأم
التيمان، قبل فترة قصيرة.. فصارت كلما جاءت، لزيارة أباك المعراقي
الذي كان يكتب لها تغشّي في طريقها أم التيمان.

كانتا تجلسان لوقت طويل وحدهما. وتتهامسان.. ولا أدري ما
الذي كانتا تقولانه لبعضهما!

XIII

كانت سلمى ذات جمال ملائكي موحى. وجهها بملامحه الهادئة وجسدها المشدود، لا يعكسان حقيقة أمرها أبدا، حتى أنني ظلمت لوقت طويل، أظن أنها لم تبلغ الثلاثين بعد!

عندما اكتشفت أنها في النصف الأول من العقد الرابع، وأنها عاشت في غربة طويلة، بعد أن دفعته الوفاة المبكرة لوالدها لهجر البلاد الكبيرة، والاعتراب للعمل.

ومنذ أنقضت سنوات غربتها، وهي تحاول لمُ ركام ذكرياتها وتشكيل ماضيها العائلي من جديد! كانت تشتاق دفاً الأسرة والحياة الأسرية. تحلم بالزواج والإنجاب، وربما ذلك ما حفز على استمرار ارتباطها العميق بزميلة الدراسة والطفولة سارة وابنها الصغير.

إذ كانت تربط بين سلمى وسارة علاقة من ذلك النوع من العلاقات، التي تستوقف التاريخ الاجتماعي طويلا! ويلخصها في مفردة أو عبارة واحدة: أنهما تحبان بعضهما حبا كبيرا!

كان لصوت سلمى سحر قوي يهديني كلما تسرب أعصاي؛ وكنت أعلم أنني أشتهيها كما كانت أم التيمان أيضا تعلم.

وكنت كلما التقيتها وجلست إليها استثار، فأضطر إلى الركض سريعا، حتى أصل بيت ست البنات العثمانة، فاداهمها على غير توقع!

وفي واحدة من هذه المرات، بعد أن التقيت سلمى، فأطلقت شياطين الجحيم في دمي، ركضت مسرعا الى بيت أم التيمان، وفوجئت أنها مسجونة بعد أن تم القبض عليها في كشه مفاجئة وغير متوقعة.

كنت كالمسعود فركضت الى بيت ست البنات، التي فوجئت بي.

ومنذها لم أرى أم التيمان أبدا! كنت اتجنبها، تتآكلني أسئلة ذاتي التي لم تكن لدي إجابة عنها! ولوقت طويل كانت كلما خطرت على بالي، أشعر بانقباض في قلبي.

رحلت أم التيمان بعد ذلك الحادث بمدة قليلة، ولم يعد أحد يعرف إلى أين ذهبت، وكنت أشعر أن سلمى خير الله تعرف المكان الذي قصدته أم التيمان! لكنها أبدا لم تخبرني!

ولم أكن أجروء على الإفصاح لسلمى عن حقيقة مشاعري نحوها، فقد كانت هذه المرأة ذات قدرة غريبة، على السيطرة حتى أنني لم أكن أجروء على النظر في وجهها، دون أن أشعر بالارتباك.

أدركت منذ وقت مبكر. أنني كنت ضعيفا أمامها. وأدركت أكثر شعور جداد شقيقها تجاهها. لا بد أنها كانت تضعع كيانه، وتفقدته القدرة على السيطرة على نفسه بقدرتها الغريبة هذه التي لم أعلم حتى بعد كل هذا الوقت الطويل: أين يكمن مصدرها؟!

حتى أن أدروب في واحدة من تجلياته النادرة استوقفني بعد أن رأي أمشي بصحبتها وأودعها إلى خارج جلاي ود عربي:

“البتت دي جمرة!”

فضحكت:

“يعني شنو؟! ”

صمت أدروب ولم يكلف نفسه عناء الرد وبعينيه تلوح نظرة ساخرة! تركته خلفي ومضيت، وأنا أعلم أنه يلوك الحسرة!

وما أن مشيت قليلا، حتى استوقفني عبد الرحمن العوير (ود التوم)، الذي لا أدري من أي شق في الأرض، أو في جُدر جلاي خرج

ليقف أمامي على هذا النحو المفاجئ:

“ما الذي كان أدروب يقوله لك؟!”

دهشت لاهتمام عبد الرحمن لمثل هذا الأمر، فعبد الرحمن عُرف عنه عدم الاهتمام واللامبالاة بما يدور حوله، ولذلك كانت دهشتي كبيرة فصمت.

“ماذا كنت تقول لبنت خير الله أخت جداد؟”

أصبحت دهشتي أعظم، فوجئت به يعرف اسمها كاملا وعلاقتها بجداد، فسألته بحدة:

“وما أدراك ان جداد شقيقها؟”

فلم يرد على سؤالي، ضحك ضحكته الصاخبة، و ركض مبتعداً..

قبل هذه اللقاءات المتتالية، التي خلفت في نفسي أثراً لازمني لوقت طويل. كان أدروب يحاول أن يجيبني على سؤالي إياه، عن الأسباب التي جعلته يصبح موالياً للعرافين، وأحد أتباع جداد، ففوجئت أنه لم يؤمن يوماً بأفكارهم التي يعدها غريبة!

“إذن لماذا انضمت إليهم؟”

“المعاش جبارة”

“كيف يعني؟”

“شقيقي الأصغر كان منهم. فقتل في حرب الصعيد (استشهد) وجاءوا ليلبغونا الخبر في احتفاء شديد.. نصبوا الصيوانات.. عرس الشهيد، كما زعموا.

كانت الأسرة وكل الأهل حزّاني، فاستاءت منهم، لكن لم أكن أدري ما الذي أستطيع فعله.. عرس الشهيد؟!.. هنا في الأرض؟! جاءوا بالعربات

المحملة بالأرز والسكر والدقيق والخضار، التي قالوا إن الملائكة هي التي أرسلتها لنا! كان عرسا لم تشهد منطقتنا أو الملائكة ذات أنفسهم مثله من قبل.

قالوا إن أخي يجلس الآن في غرفة نوم بديعة مع الحور العين، والولدان المخلدون يقومون على خدمته. تحدثوا عن جمال غرفة النوم والحور العين الأبيكار حتى حسد الناس. كل الناس. أخي. كنا مصدومين. وما أن مضت أيام. حتى بدأت حدة الصدمة تخف شيئا فشيئا، وبعد شهرين عينوا أبي أميننا لمخزن سكر البلدية.

وعندما قرروا عمل الجرد السنوي لمخزن السكر كان المخزن فارغا. سألوه:

“أين السكر؟”

فكانت إجابته حاسمة:

“الملائكة كل يوم بالليل تجي تحمل السكر في العربات الكبيرة، لتقيم به أعراس للشهداء.. الشهداء أصبحوا أكثر منذ استشهد ولدي” لم ينبسوا ببنت شفة! لكن لم تمض سوى أيام معدودات حتى قاموا بفصله! أدركوا أنه يرد عليهم بضاعتهم!

تابعت عبد الرحمن العوير وهو ينصرف ضاحكا، ضحكته المجلجلة.

حدث ذلك في ذات الوقت. الذي كان فيه جداد، مشغولا بأمر حملته المقدسة، ضد من اسماهم “الخونة والمارقين في جلابي” ولأول مرة أعلن جداد صراحة أن تمرد أهالي جلابي. على الصلاة سيجعلهم مرتدين وخارجين عن الإسلام وأمة محمد!

وفي سياق ذلك اعلن حالة التعبئة العامة، بإصدار عدد من

الفتاوى، التي حرم فيها التدخين وبيعه وشراؤه، وتأجير المكان لمن يبيعه، وحلق اللحية لأن في حلقها تشبها بالمشركين والمجوس، والاستماع إلى الموسيقى والأغاني. فذاك أمر لا شك في تحريمه تماما!

مثل مشاهدة أفلام الفيديو عند مزيد الحلبي:

“عباد الله يا أهل جلالي أن بهذه الافلام نساء كاسيات عاريات وربما عاريات تماما”

وهكذا عبر لغة التعبئة العامة، التي تستنفر العواطف أخذ جداد يصدر العديد من الفتاوى التي يحرم فيها كما يعن له، دون أن يسأله أحد تلت الثلاثة كم؟!

مشكلة جداد أنه ينتمي من جهة أمه إلى إحدى القبائل الأفريقية، غير المسلمة. حيث نشأ في ديار أبيه في كنف الإسلام وزياراته المتكررة لموطن أمه نشب داخله صراع حاد ومثل كل أبناء جيله، ولدوا بالجبيل، أو بواسطة القابلات الشعبيات، وتم تقدير سنه فيما بعد وُدون في سجل المواليد والوفيات تقديرا من قبل الطبيب المناوب! وهكذا استخرجت له شهادة (تقدير العمر) عندما قرر والده (بعد وقت طويل من ولادته في ديار أمه)، أن يرحل وينتقل إلى دياره التي جاء منها لينشأ جداد وإخوانه كما نشأ أسلافه!

عندما قرر والده ذلك، كان يدرك أن تلك مرحلة أولى، لاستقراره مع أسرته الجديدة. فقد كان يعمل على ترتيب أوضاعه هناك مؤقتا، الى ان يتمكن من ترتيب أوضاعه بصورة نهائية في المدينة الريفية التي كانت مزدهرة وقتها.

وهكذا لم يلبث سوى سنوات قليلة مع، أسرته حتى انتقل بجداد وابناءه الآخرين من ديار أبيه إلى المدينة الريفية. حيث بدأ جداد مسيرته التعليمية بعد تجاوز السن القانونية بعدة سنوات! وفي المدينة

الريفية.. في هذا المجتمع الطائفي المحتقن بالنعرات، تمت صياغة جداد في سنوات حياته الأولى، التي تشكلت من تأثيرات الحياة البدائية لأهل أمه. والبدوية لأهل أبيه.

كانت المدينة الريفية وقتها تصطبغ بمزيج غريب! كانت كحضن تصطرع داخله مركبات ثقافية متنوعة ذات تأثيرات عديدة ومتباينة. وكانت العربية لغة أبيه، بالنسبة له لغة أولى مثلها مثل لغة والدته! وبتدرجه في مراحل التعليم المختلفة، وتعرفه على التاريخ والجغرافيا تبلور داخله الصراع القديم بحدة، ولم يستطع تفاديه، فهو كحالة مشابهة أو لا تختلف كثيرا عن حالة آدمو أو أبكر!

ظل متنازعا مثله، بين الأفكار والآراء المحلية التي شهدتها مراحل حياته المختلفة ونشأ عليها على يد والدته ووالده، وأهالي المدينة الريفية، والمعرفة التي منحها إياه المناهج المدرسية، ومن هنا حدث له تحولا شبيها بالتحول الذي عاشه آدمو، حتى انتهى إلى أن يصبح أبكر!

لكن تحول جداد كان في الاتجاه المعاكس لأبكر. كانت حياة جداد قد تخبطت كحياة آدمو، وعمتها الفوضى العارمة!

حكى لي أدروب عن حكاية شائعة، كنت قد سمعتها منذ وقت طويل: كيف أن ثريا عندما بلغت سن المراهقة، استدرجها جداد إلى بيته، قال أدروب:

“كنت أنا ذاتي اشتهيها. ولذلك اهتممت بمراقبتها في غدوها ورواحها، وتبعتها في إحدى المرات لحظة خروجها من منزلها، فرأيت جداد يستوقفها في منتصف الطريق المفضي إلى خارج جلاي..

ثم لم يلبث أن غيرا مسارهما عائدين إلى جلاي. فتبعتهما ورأيت ثريا تدخل مع جداد بيته.

لم تكن للبننت تجربة، ولا تعرف ما هي مقدمة عليه. ترددت كثيرا إلى أن حزمت امري، فدخلت عليهما. لكن كان الوقت قد فات. كانت تبكي بصوت خافت مزعور، وجداد بدى مباغتاً و خائفا ومرتبكا، وانا بصري يجول بينهما، تطرق مسامعي كلماته:

“استرني الله يسترك.. استرني الله يسترك”

امتلكت نفسي فهدأتها وجداد ينظر إلي يتقطر من كل مسامه العرق. وأنا صامت لا أفتح “خشمي” معه. هذه الحادثة هي السبب في علاقتي بجداد وثرىا معا”

“قمت بابتزازه يعني؟”

“ليس تماما”

سألته عن علاقته السرية التي تربطه بجداد، فرفض أن يتحدث عن ذلك مطلقا.

XIV

كانت سارة هي الأخت الوحيدة التي تتوسط عشرة أخوة ذكور أصغرهم صديقي حسن. وكان قد مضى وقت طويل منذ التقيتها آخرمرة فمنذ انتقلنا للسكن في حاضرة البلاد الكبيرة. فقدت الاتصال به. سألتها عنه وعن أخباره، فعلمت أنه أصبح متطرفا من أتباع العرافين وجداد. فأدهشني ذلك تماما! وأشعل داخلي كثير من الأسئلة. لمعرفة سبب حدوث ذلك لحسن!!

وعندما سنحت لي الفرصة للقاء حسن، قبيل مغادرتي البلاد الأسيرة كان أول سؤال سألته عن تجربته تلك. ضحك وهو يقول:
“رَما كانت تلك التجربة العجيبة، عقاب لي على ما اقترفته من جرائم”.

ثم لم يزد. إذ كان حريصا على عدم الإدلاء بتفاصيل سوى عن التطورات التي أعترت المدينة الريفية و جلابي عبر السنوات منذ طفولتنا حتى تلك اللحظة.

وبالفعل شهدت المدينة تطورات وتحولات لا تصدق. فقد تمت إعادة تخطيطها، وإعادة توطين أهلها بشهادات بحث تثبت ملكيتهم للأرض، التي شيّدوا عليها منازلهم.

وقد قامت الحكومة الجنجويدية التي تلت حكومة أبولكيلك الجنكويزي، بإدخال الخدمات الأساسية، فشقت الشوارع ورفقتها، وأدخلت شبكة المياه والكهرباء والغاز.

حتى أن الكهرباء والغاز جعلت حسابهما، بعداد إلكتروني من الأنواع الحديثة، أطلق عليه الناس إسم “الجمرة الخبيثة” وأنشأت

عددا من المدارس في مراحل التعليم المختلفة. وخطت سوق "الحر" الذي كان اسمه سوق "العصر" ومنحته اسما جديدا (السوق الشعبي اللريفية)، ووزعته على الأهالي الذين شيّدوا عليه، دكاكين الطوب الأحمر والخرسانة المسلحة.

كما افتتحت عدد من الكازينوهات والحدائق العامة بعدد من أنحاء جلاي على استحياء.

في الوقت نفسه، كانت جلاي ود عربي وامتداداتها، قد شهدت تحولا إلى النقيض. فقد استطالت عمرانيا، وظهرت طبقة جديدة من التجار، وتم الاستيلاء على الجامع من جداد. ووضع تحت الإشراف المباشر للأوقاف والشؤون الدينية.

التي قامت بتجديده وتحديثه وتوسعته. فاصبح تحفة فنية، جذبت إلى العبادة عددا كبيرا من الناس. لم يشهد له تاريخ جلاي الديني مثيل. تقلصت مساحة الجريمة والفقر، وأصبحت جلاي تعرف بمدينة "الفردوس" الراقية ذات العمارات السوامق، والعربات الفارهة! نسي أهالي جلاي. كل فترات الضنك والبؤس الذي حكم تاريخهم المديد. أصبحت الأبخرة القديمة، والروائح السبخة المشبعة بالعطن، محض تاريخ وذكريات، فمدينة الفردوس لا تفوح منها الآن سوى رائحة "الدلكة والكبريت ودخان الطلح" والصندل والعود الباريسية الغالية..

وانتشر "الدش" في كل مكان. وأصبح المزاج الفني في جلاي أكثر رقيا. فهم الآن يشاهدون أفلام مورجان فريمان، ودينزل واشنطن وصامويل إل جاكسون وانجلينا جولي وجوليا روبرتس وفورد هاريسون وريتشارد جيرد، وويل سنايبس، إلخ من الممثلين والممثلات المميزين، الذين ارتبطوا في الذهن العام لجلاي (الفردوس) بالرعاية الخاصة،

التي ظل يقدمها جورج بوش (الأب) الذي كأسلافه ريغان وكارتر أولى
جلابي عناية خاصة. ما جعلها تگن له احتراماً كبيراً!
كان صديقي حسن لا شك يسخر مني.. يخرج لسانه ويهز أذنيه
بإبهاميه!

XV

ها هي برهة اللحظة الشاهقة، تتقلص في وحدتي، حيث أطل
من أعلا شرفات خاطري، الذي هيجته ذكريات جلالي ود عربي. وها
أنا أخرج من الأحوال المنسية، متلفتا بين المتوّن والحواشي، طاردا
من ثقوب ذاكرتي، رائحة الخميرة التي حملها التاريخ المنسي لجلالي:
تاريخ المكان والناس الناهض، في الروث وأبخرة الخمر البلدي، ورائحة
الجنس والعرق..

كان دمي يسيل على الشارع، والبُرْهة تتقلص شيئا فشيئا، لتتجمد
في لحظة واحدة، هي اللحظة التي كنتُ أقف فيها، مع الميرم كلتوم،
في قلب ميدان التحرير، وهي تتلقى ذلك الهاتف، السري السماوي
البعيد!

نعم وقتها كنا في ميدان التحرير قبالة التمثال، ومع آخر كلمات
الهاتف، بدى ميدان التحرير فارغا إلا منا! وشاب بهالة ملائكية
يتهدى في مشيته من بعيد باتجاهنا من قبالة الشارع، المفضي لتمثال
طلعت حرب!

رأيت في طيفه عبد الرحمن ود التوم (العوير) وأدركت من ارتباكها
انه حقا هو.. نعم كانت الميرم كلتوم مرتبكة ومتنازعة، تقلب بصرها
بيني وبينه.

ثم حسمت أمرها فمضت تجاهه، إلى أن اقتربا من بعضهما
وتخاصرت أصابعهما. و دلفا إلى شارع القصر العيني.

كنت واقفا أمعن فيهما النظر إلى أن تلاشيا في الشارع الخالي إلا
منهما، فرددت بصري وأنا أشعر بميدان التحرير، يمتلئ فجأة بالناس

و الضجيج يملأ شارع القصر العيني، والزحام يعيق المرور في الشارع
المفضي إلى قصر عابدين.

كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي تهشمت فيها
طبيعتي، فأخر ما التقطته عيناى. عربة نقل كبيرة قادمة نحوي
بسرعة.. ثم لم تلتقط أذني بعد ذلك سوى صرير عجلاتها وهي تطأني..

عندما استيقظت لم أجد العربة. لم أجد ميدان التحرير.

تلفت حولي كنت في قلب ساورا، فأدركت أن الحلم لا زال يلقي بي
من مكان إلى مكان، ومن زمان الى آخر.

إنتهى الجزء الأول

(المخطوطة السرية لجلايى ود عربى)

يليه الجزء الثانى:

(ساورا.. مملكة الجبل)

فالجزء الثالث:

(تجاعيد ذاكرة البنجوس)

أحمد ضحية

كوستى 1997

القاهرة 2006

روجعت 2020، لانسينغ، ميتشيغان.